العصور، المجلد الرابع عشر، الجزء الأول، 151 – 180 (2004م)

# المسألة الأرمنية في الدولة العثمانية وحادثة احتلال البنك العثماني (1896م/ 1314هـ)

د. سلوى سعد سليمان الغالبي


## ملخص البحث:

تتناول هذه الدراسة العلاقات الأرمنية في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، وتُركز على احتلال جماعة من حزب الطاشناق الأرمني للبنك العثماني بالأستانة في 26 أغسطس 1896م/1314هـ. وترصد الدراسة، بصورة عامة، الوضع المميز للأرمن سياسياً وإدارياً واقتصادياً وثقافياً واجتماعياً بالمقارنة مع الطوائف غير الإسلامية في الدولة العثمانية.

ولكن منذ بداية القرن التاسع عشر الميلادي تنامى الشعور القومي الأرمني نتيجة لأفكار الثورة الفرنسية ودخول الصحافة والطباعة والتعليم ونشاطات البعثات التنصيرية في الدولة العثمانية. بيد أن تنامي الهوية القومية الأرمنية قوبل باستحالة تحقيق الدولة العثمانية لآمال وطموحات الأرمن فيما يتعلق بالاستقلال أو حتى الحكم الذاتي شأن شعوب البلقان في خط متواز مع تذبذب الموقف الدولي إزاء القضية الأرمنية منذ تدويلها في المادة 61 من معاهدة برلين 1878م/1295هـ. أضف إلى ذلك، انقسام الأرمن دينياً وسياسياً وفكرياً.

وبفشل حل القضية سياسياً ودبلوماسياً، انتهج الأرمن الأساليب العنيفة التي قابلتها الدولة العثمانية بالمثل. وكان احتلال البنك العثماني، وردود أفعاله، حلقة من حلقات هذا العنف. وأراد الأرمن من وراء احتلال البنك الإضرار بالمصالح الأوربية، إذ إن البنك العثماني كان الآلية التي تُمارس من خلالها البلاد الأوربية مصالحها في الدولة العثمانية. ولذا، اعتقد الأرمن أن تهديد هذه المصالح ربما يدفع أوربا إلى ممارسة ضغط على الباب العالي لحل القضية الأرمنية.

وبفشل عملية احتلال البنك العثماني، تزايدت خسارة الأرمن وتوترت علاقاتهم أكثر فأكثر مع السلطات العثمانية. أتاحت هذه الحادثة مزيداً من فرص تزايد التدخلات الأجنبية في الشؤون الداخلية للدولة بحجة حماية الأرمن. علاوة على ذلك، تصيد اليهود فرصة توتر العلاقات الأرمنية العثمانية لتحقيق مآربهم الصهيونية في فلسطين.

شغلت المسألة الأرمنية حيزاً جدلياً في التاريخ العثماني امتد حتى الوقت الحاضر[1] خاصة أن تلك المسألة كانت قد هددت أمن الدولة العثمانية وسلامتها وزادت من أعبائها بل ووضعتها في مأزق حرج أمام الدول الأوربية التي كانت ترصد لها الأخطاء وتتحين الفرص للتدخل في شؤونها. ومن خلال هذه الدراسة سنحاول تسليط الضوء على صفحة من صفحات تلك المسألة ألا وهي احتلال الأرمن للبنك العثماني في حي جالاتا باستانبول بين يومي 26-28 أغسطس عام 1896م/ ربيع أول 1314هـ. ولكن قبل ذلك لابد لنا من العودة للوراء لنلمس طبيعة العلاقة بين الدولة العثمانية ورعاياها من الأرمن من حيث التنظيم الديني ثم الأوضاع الاقتصادية التي انعكست على التطور الفكري للأرمن وتأثير ذلك على المجريات السياسية سواء الإيجابية أو السلبية، لنضع ذلك كله على بساط البحث والدراسة والتمحيص لنخرج بالحقيقة قدر المستطاع.

## جذور المسألة الأرمنية في الدولة العثمانية :

حتمت الحروب المتوالية بين الدولتين الصفوية والعثمانية تقسيم أرمينية بينهما إلى قسمين: شرقي وغربي. أُطلق اسم "أرمينية الشرقية" أو "الفارسية" على المناطق التي خضعت للصفويين[2] والتي استطاعت روسيا القيصرية الاستيلاء عليها منذ عام 1828م/1244هـ وصارت تُسمى "بأرمينية الروسية".[3] أما "أرمينية الغربية" أو "العثمانية" وهي الجزء الأكبر فقد ضمت ست ولايات هي : بتليس (بدليس) وأرزن الروم (أرضروم) وقان (وان) ومعمورة العزيز (خربوط) وجزء من ديار بكر وسيواس (سيقاس).[4]

وفى إطار التنظيم الديني في الدولة العثمانية، فقد خضع رعاياها غير المسلمين لنظام "الملل" Millets، وكان لكل ملة رئيس ديني ينظر في المسائل الدينية وقضايا الأحوال الشخصية الخاصة باتباع هذه الملة دون تدخل من جانب الدولة التي تركت له حرية ممارسة هذا الاختصاص.[5] وبهذا يكون نظام الملل قد منح الرعايا غير المسلمين كياناً ذاتياً خاصاً. وبعد أن فتح السلطان محمد الثاني (1451-1481م/855 - 886هـ) القسطنطينية عام 1453م/857هـ استدعى إليها هوقاجيم المطران الأرمني لمدينة بروسه وأقامه في استانبول

(1) أدى اعتراف البرلمان الفرنسي بتعرض الأرمن لمجازر في الدولة العثمانية وقعت ما بين عامي 1915-1922م إلى تدهور العلاقات التركية الفرنسية رغم أن القانون لم يطالب تركيا بشيء ولم يكن يتعدى محاولة إرضاء الناخبين الأرمن في فرنسا قبيل الانتخابات المحلية والبلدية. انظر: الشرق الأوسط، العدد 7127، في 3/6/ 1998. الحياة، العدد 13824 في 19/1/ 2001.

(2) حافظ، فؤاد حسن: تاريخ الشعب الأرمني منذ البداية حتى = اليوم، القاهرة، د.أ، 1986م، ص ص 182- 185.

(3) Palmer, Alan: The Decline And Fall Of The Ottoman Empire, Cambridge, 1995, P. 175.

(4) الإمام، محمد رفعت: القضية الأرمنية في الدولة العثمانية 1878- 1923م، القاهرة، د.أ، 2002م، ص ص 15-16.

(5) الشناوي، عبد العزيز: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، القاهرة، الأنجلو المصرية، 1984م، ج1، ص ص 67- 68.

بطريركاً للأرمن يتمتع بذات الحقوق المقررة لبطريرك كنيسة الروم الأرثوذكسية.[6] وانطوى تحت مسؤوليته الإدارة الروحية والموظفون والتعليم العام والمؤسسات الدينية والخيرية لملته.[7] كما تعين عليه أن يؤدي للدولة ضريبة سنوية.[8] هذا وقد حظي الأرمن الأرثوذكس بعطف وحماية روسيا القيصرية باعتبارها حامية للمذهب الأرثوذكسي.[9]

والحقيقة أن الأمر لم يتوقف عند اعتراف العثمانيين بالملة الأرثوذكسية الأرمنية، بل تعداه إلى الاعتراف بالملة الكاثوليكية الأرمنية في عام 1830م/1246هـ وبالتحديد في عهد السلطان محمود الثاني (1808-1839م/1223-1255هـ) وكان ذلك بسبب الضغوط التي تعرض لها هذا السلطان من قبل الحكومة الفرنسية، وهكذا نظرت فرنسا للأرمن الكاثوليك في الدولة العثمانية على أنهم عملاء لها ويستحقون حماية القناصل الفرنسيين نتيجة للاتفاق المذهبي.[10]

ولم تستطع بريطانيا أن تترك الساحة لفرنسا كما هو المعتاد دائماً، ولذلك فقد سعت لدى السلطان عبد المجيد الأول (1839-1861م/1255-1278هـ) من أجل الاعتراف أيضا بالملة البروتستانتية الأرمنية عام 1850م/1267هـ بعد أن أقبل الأرمن على الدخول فيها. وكان ذلك نتيجة للنجاح الذي حققته البعثات التنصيرية البروتستانتية البريطانية والأمريكية.[11] ومما لاشك فيه أن الباعث لإقبال الأرمن على اعتناق المذهب البروتستانتي هو من أجل أن يحصلوا على حماية قناصل بريطانيا كما هو الحال مع الأرمن الذين اعتنقوا الكاثوليكية وظفروا برعاية فرنسا. ومما يُدعم هذا، وجود نظام الامتيازات الأجنبية في الدولة العثمانية والذي حتماً أعطى لقناصل الدول الأوربية الفرصة للتدخل في أمور الدولة العثمانية تحت ستار حماية معتنقي المذهب الرسمي لدولتهم.

أما من حيث الأوضاع الاقتصادية للأرمن في الدولة العثمانية، فقد حققوا نجاحاً كبيراً في الأنشطة الاقتصادية متعددة الصور. ففي أعمال الصرافة وتبديل النقود، أظهروا مقدرة كبيرة في معاملاتهم مع حكام الولايات والحكومة العثمانية بصفة خاصة، كما ضربوا بسهم وافر في الأعمال المالية وما تفرع عنها من نشاط مصرفي وإدارة شركات مالية واقتصادية خاصة في المدن الكبرى

(6) Inalcik, Halil: The Ottoman Empire, The Classical Age 1300-1600, London, 1994, PP. 56-57.

(7) محمد رفعت الإمام: الأرمن في مصر القرن التاسع عشر، القاهرة، د.أ، 1995م، ص 28.

(8) عبد العزيز الشناوي: مرجع سابق، جـ3، ص 1537.

(9) وقعت معاهدة كوجوك قينارجه عام 1774م بين روسيا والدولة العثمانية وكانت من أقسى وثائق التاريخ العثماني وحصلت روسيا بمقتضاها على حق إقامة كنيسة أرثوذكسية في العاصمة العثمانية يشرف عليها أساقفة = روس ومنحت حق حمايتها – وقد فسر ذلك فيما بعد على أنه يعني حماية روسيا لكل المسيحيين الأرثوذكس داخل الدولة العثمانية. انظر :
مصطفي، أحمد عبد الرحيم: في أصول التاريخ العثماني، بيروت، دار الشروق، 1982م، ص ص 165 – 167.

(10) Shaw, Stanford. J&Shaw, Ezel Kural: History Of Ottoman Empire And Modern Turkey, London, 1992, Vol.2, PP. 125-126.

(11) Ibid: P. 126.

بالدولة العثمانية. وبرزوا في عالم التجارة خاصة الأقمشة وكان لهم نشاط تجارى مكثف بين الدولة العثمانية والعالم الخارجي.[12] كما أسهم الأرمن في إدارة المشروعات الصناعية، فكان منهم المهندسون والمعماريون والنقاشون الذين شيدوا عدداً كبيراً من المساجد والقصور والمنشآت العامة والمصانع. ومن أهم تلك الصناعات كانت صناعة المجوهرات الدقيقة.[13] ولم يهمل الأرمن النشاط الزراعي فاشتغلوا بفلاحة الأرض في القطاع الريفي من الولايات.[14]

كذلك برع الأرمن في مجال الطب وكانوا رواد الحركة المسرحية في استانبول.[15] ومما سبق نلمس مدى الانتعاش الاقتصادي الذي وصل إليه الأرمن خاصة في استانبول حتى غدوا أكبر منافسين لليونانيين واليهود في الأنشطة التجارية والمالية وغيرها[16] وانعكس ذلك بلا شك بشكل إيجابي على حياتهم الاجتماعية.

هذا، وقد انخرط الأرمن أيضاً في الهيكل الوظيفي العثماني، فتقلدوا أعلى الوظائف بسبب إتقانهم للغات الأجنبية واستعدادهم لخدمة الدولة وذكائهم وجديتهم وافتقارهم إلى طموحات الاستقلال في ذلك الوقت.[17]

برزت ظاهرة تقلد الأرمن للمناصب القيادية والعليا في الدولة العثمانية منذ أن أقصت الدولة رعاياها اليونانيين عن المناصب الرفيعة بعد الثورة التي قاموا بها في عام 1821م/1237هـ[18] طلباً للاستقلال.[19] وازدادت هذه الظاهرة مع عهد التنظيمات بوجه خاص، فقد أصدر السلطان عبد المجيد الأول خطى "كلخانة" في عام 1839م/1255هـ و "همايوني" في عام 1856م/1273هـ، وبمقتضاهما كفل أمن الرعايا المسيحيين وألغى ضريبة القرعة العسكرية فأصبح المسيحيون مؤهلين للخدمة العسكرية.[20] ولكن مع حرية شراء الإعفاءات. انفتحت الوظائف المدنية أمام جميع الرعايا بعد أن تم كبح جماح السلطة الدينية لرؤساء الملل بشكل صارم.[21] ونعم الأرمن برعاية السلاطين العثمانيين حتى حكم السلطان عبد الحميد الثاني (1876-1909م/1293-1327هـ) الذي استهل حكمه بعلاقة وثيقة مع الأرمن حيث قرب الكثير

(12) الشناوي، مرجع سابق، جـ3، ص 1538.
(13) الإمام، الأرمن في مصر، ص 29.
(14) Karal, Enver Ziya: Question Armenian, 1878-1923, PP. 6-7.
(15) Shaw: OP. Cit, P. 200.
الإمام، الأرمن في مصر، ص ص 234- 240.
(16) الشناوي، مرجع سابق، جـ3، ص 1538.
(17) حافظ، مرجع سابق، ص 189.
(18) لمزيد من المعلومات عن الثورة اليونانية عام 1821م انظر: الدسوقي، محمد كمال: الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، القاهرة، دار الثقافة، 1976م، ص ص 119- 153.
(19) مانتران، روبير: تاريخ الدولة العثمانية، القاهرة، دار الفكر، 1993م، جـ2، ص ص 215- 216.
(20) مصطفى، أحمد عبد الرحيم: مرجع سابق، ص ص 210 – 212.
(21) الإمام، محمد رفعت: القضية الأرمنية، ص 18.

منهم إليه[22] إلا أنه غير موقفه فيما بعد عندما ثبت له عدم إخلاصهم.[23]

وتُشير إحصائية لموظفي الحكومة العثمانية من الأرمن إلى وجود اثنين وعشرين وزيراً عملوا في الخارجية والمالية والخزانة والأشغال العامة والبريد والتلغراف، وخمسة وكلاء وزارات وقناصل في برلين وروما ولندن وبروكسل وأثينا، إضافة إلى المستشارين والسكرتيريين والمترجمين والمديرين ودخل بعضهم البرلمان العثماني بمجلسيه[24] بل ووصل الأرمن إلى حد أن الحكومة العثمانية اختارت في عام 1861م/1278هـ أحد الأرمن الكاثوليك ليشغل منصب "متصرف لبنان" وهو أرتين داود باشا ومنحته رتبة مشير وهي أعلى رتبة عسكرية في الدولة مُنحت لمسيحي.[25] فهل ظلمت الدولة العثمانية الأرمن ؟

ولم يشكل الأرمن أغلبية عدديه في أي من الولايات العثمانية إلا في سيواس وقان، كما أنهم خارج المدن الرئيسية كانوا متناثرين إلى جانب القبائل الكردية المسلمة. وقد عاني الاثنان الأوضاع الاقتصادية المتردية للدولة العثمانية والتي ارتبطت بسوء حكم رجال الإدارة وكبار ملاك الأراضي. ومع هذا كان للأرمن الحرية الكاملة في ممارسة أعمالهم شأنهم شأن كل رعايا الدولة العثمانية.[26]

بيد أن ثمة عوامل غيرت من سلوك الأرمن مع حلول القرن التاسع عشر الميلادي/الثالث عشر الهجري نتيجة لتطور الفكر الأرمني ووجود الأرض الخصبة لذلك والمتمثلة في تدخل الدول الأوربية في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية لاسيما روسيا التي سعت لكسب أراض عثمانية جديدة بهدف مد إمبراطوريتها إلى المياه الدافئة، ولهذا عملت روسيا على تقويض القوة العثمانية من الداخل بإثارة الطموحات القومية لدى رعايا السلطان من المسيحيين اليونانيين والسلاف في البلقان والأرمن في الأناضول.[27] كما كانت الطباعة والصحافة عاملين حاسمين في التغيير.ففي عام 1812م/1227هـ أصدر الأرمن باستانبول "رقيب بيزنطة" أول صحيفة في الدولة العثمانية ثم أسسوا "14" دورية بالعاصمة العثمانية — نتيجة التنظيمات — بين عامي 1840 - 1866م/1256-1283هـ من أهمها "ماسيس" و "هايرينيك". وخلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي/الثالث عشر الهجري قامت هذه الدوريات بدور رئيسي في اليقظة السياسية لدى جموع الأرمن القاطنين بالأناضول.[28] وقد صاحب تطور الفكر الأرمني

(22) ارتبط السلطان عبد الحميد الثاني مع الأرمن بعلاقة وثيقة في بداية حكمه حتى إن أموره المالية كانت تدار بواسطة أرمني شهير هاجوب ظريفي بك Hagop Zarifi Bey. انظر: Shaw: Op. Cit., P. 172.

(23) Shaw: Op. Cit, P. 203.

(24) الإمام، محمد رفعت: الأرمن في مصر، ص ص 29 – 30.

(25) الشناوي، عبد العزيز : مرجع سابق، جـ3، ص 1539.

(26) Shaw: Op. Cit, P. 201.

(27) Sonyel, Salahi Ramsdam: The Ottoman Armenians, London, 1987, PP. 11-12.

(28) الإمام، محمد رفعت: القضية الأرمنية، ص 20.

يقظة قومية أرمنية بسبب الدور الذي لعبته البعثات التنصيرية في الدولة العثمانية. فقد شجعت الأرمن على إحياء دراسة اللغة الأرمنية الكلاسيكية ونشر الأناجيل بلغتهم القومية وتطوير لغتهم بشكل جديد يستطيع كل الأرمن أن يفهموه.[29] هذا بالإضافة إلى إرسال كثير من أغنياء الأرمن أبناءهم للدراسة في الخارج خاصة فرنسا مما جعلهم يتأثرون بالفكر الغربي لا سيما الفرنسي.[30] وقد انضم فريق من هؤلاء الأرمن إلى جمعية تركيا الفتاة[31] وروجوا لفكرة الحكومة التمثيلية سواء داخل نظام الملل أو في المجتمع العثماني.[32] وفي أعقاب عودة هؤلاء الأرمن الغربيين[33] إلى الدولة العثمانية قاموا بصياغة نظامنامة الملة الأرمنية، أي الدستور الأهلي الأرمني في عام 1860م/1277هـ وصدقت عليه الحكومة العثمانية في عام 1863م/1280هـ حرصاً منها على توفير أسباب الاستقرار وإدخال نوع من الحكم الأهلي للملة الأرمنية.[34]

ولم يتوقف الأمر عند هذا، بل نادى هؤلاء الأرمن الغربيين بالإصلاحات وتتطلعوا للحصول على الحكم الذاتي تحت سيادة السلطان وكانت قلة منهم هي التي طالبت بالاستقلال ولكنهم اصطدموا أولاً: بمعارضة بعض الأغنياء من الأرمن الأرثوذكس والذين أصابوا ثراءً كبيراً في ظل الحكم العثماني.[35] وثانياً: بالموقف السلبي للدول الأوربية حيث كانت ترمي إلى إبقاء الدولة العثمانية والدفاع عنها ضد توسعات روسيا القيصرية. ولهذا اكتفت بالمطالبة بالإصلاحات الداخلية للأرمن في الولايات الست في نطاق بقائهم ضمن رعايا الدولة العثمانية مع تحقيق رغبتهم في الحصول على الحماية لأنفسهم وأملاكهم من الموظفين الفاسدين ومن عصابات النهب فضلاً عن مساواتهم بالرعايا المسلمين.[36]

ومع التطورين الفكري والقومي للأرمن، ازداد تطلعهم لتحسين أوضاعهم السياسية في نطاق الدولة العثمانية. وقد رأوا أن شعوباً مسيحية في أوربا كانت خاضعة للدولة العثمانية قد ظفرت باستقلالها التام أو الاستقلال الذاتي وتحررت من السيطرة العثمانية، ولكن لم يكن التماس المساعدات السياسية والأدبية والمالية أمراً مستطاعاً بالنسبة للأرمن لأن حكومات وشعوب أوربا كانت تُبدي اهتماماً ساخناً بقضايا الشعوب

(29) الغالبي، سلوى سعد: العلاقات العثمانية الأمريكية 1830-1918م، القاهرة، مكتبه مدبولي، 2002م، ص 20.

(30) Shaw: Op. Cit, P. 202.

(31) يرجع تأسيس حركة "تركيا الفتاة" إلى عام 1889م عندما أسس بعض طلاب مدرسة الطب العسكري في استانبول جماعة سرية لمعارضة نظام السلطان عبدالحميد الثاني والتي تحولت فيما بعد إلى "لجنه الاتحاد والترقي" لمزيد من المعلومات انظر: مصطفى، أحمد عبدالرحيم: مرجع سابق، ص ص 263- 273.

(32) الشناوي، عبد العزيز: مرجع سابق، جـ3، ص 1543.

(33) Shaw: Op. Cit, P. 202.

(34) كان أغلب الأرمن الغربيين من الارثوذكس، ونسبة الكاثوليك والبروتستانت لا تزيد عن 5٪.

(35) احتوى الدستور الملي الأرمني على "99" مادة شملت الشؤون الدينية، والمدنية للأرمن على كافة المستويات. انظر: جلاد، فيليب يوسف: قاموس الإدارة والقضاء 1890- 1894م، الإسكندرية، د.أ، 1895-1901م، المجلد الخامس، ص ص 42- 55.

(36) الإمام، محمد رفعت: القضية الأرمنية، ص 22.

المسيحية في أوربا فقط والأرمن شعب مسيحي ولكنه يقطن آسيا.[37] ومما سبق نرى أنه قد تضافرت عدة عوامل لتضعف موقف الأرمن سياسياً: أولاً: التفتيت السياسي لأرمينية بين الدولة العثمانية وروسيا القيصرية. ثانياً: الانقسام الديني المذهبي بين الأرمن (أرثوذكس، كاثوليك، بروتستانت). ثالثاً: مجاورة الأرمن لعناصر مناوئة في أرمينية العثمانية مثل الأكراد، والجراكسة، واللاظ والأرناؤوط (الألبان). رابعاً: سلبية الدول الأوربية تجاه الأرمن المسيحيين الآسيويين.

وبدلاً من قيام الحكومة العثمانية بالإصلاحات، فإنها سعت في عام 1862م/ 1279هـ للاستيلاء على إقليم زيتون الجبلي ذي الحكم الذاتي بولاية مرعش شمال شرق قيليقية. وهاجم الجيش العثماني المنطقة واستطاع أن يهزم الأرمن وألحق بهم خسائر فادحة. عندئذ ناشد الأرمن الإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث Napoleon III (1852-1870م/1269-1287هـ) التدخل، وأثمر تدخله عن فك العثمانيين للحصار مقابل السماح لهم ببناء قلعة، ومركز للجنود في زيتون. وقد ترك تمرد زيتون أثره، إذ توالت الانتفاضات في قان 1862م/1279هـ وأرضروم 1863م/1280هـ وموش 1864م/1281هـ. ويرى بعض المؤرخين أن هذا التمرد ربما كان الإشارة الأولى ليقظة الأرمن الغربيين سياسياً.[38]

وفي عام 1876م/1293هـ تقدم بطريرك الأرمن الأرثوذكس باستانبول - طالباً إجراء إصلاحات أرمنية - إلى الدول الأوربية المجتمعة آنذاك في استانبول لمناقشة شكاوى مسيحيي البلقان. إلا أن السلطان عبد الحميد الثاني فاجأ المجتمعين بإعلان الدستور. عندئذ كان الأرمن أشد مسيحيي الدولة تحمساً لصدور الدستور استناداً إلى أنهم صاروا مساوين للمسلمين العثمانيين طبقاً للدستور الجديد.[39] عندها شعر الدبلوماسيون الأوربيون أن مثل هذا الدستور يجعل أية مناقشة تتعلق بمسيحيي البلقان عديمة الجدوى، ولكن استمرار المذابح البلغارية ورفض الحكومة العثمانية مناقشة الوضع في بلغاريا قد أعطى روسيا مبرراً لإعلان الحرب على الدولة العثمانية في 24 أبريل عام 1877م/ ربيع آخر 1294هـ. وانتهت هذه الحرب بهزيمة الدولة العثمانية وتوقيعها معاهدة سان استفانو 3 مارس عام 1878م/ صفر 1295هـ.[40]

وفي سان استفانو التمس الأرمن — برئاسة بطريركهم في استانبول - تنفيذ الوعود التي كانت الحكومة الروسية قد قطعتها على نفسها للأرمن كمكافأة لهم على الخدمات التي أدوها للروس أثناء الحرب ولكن الحكومة الروسية ما

(37) الشناوي، عبد العزيز: مرجع سابق، جـ3، ص 1548.

(38) حافظ، فؤاد حسن: مرجع سابق، ص 195.

(39) De Lausanne, Jusqu au Traite: Histoire De L Armenie, Paris, 1971, P. 320.
الدسوقي، محمد كمال: مرجع سابق، ص ص 241 – 244.

(40) Karal: Op. Cit, PP. 9-10.
مانتران، روبير: مرجع سابق، جـ2، ص ص 149 – 156.

لبثت أن نكثت بوعدها لأن مصلحتها كانت تتطلب: أولاً: أن يظل الأرمن خاضعين للدولة العثمانية يثيرون المشاكل في وجهها. ثانياً: أن تحرير الأرمن وإنشاء دولة مستقلة لهم فيه إثارة للأرمن الخاضعين لروسيا مما سيؤدى بلا شك إلى مطالبتهم بالاستقلال على غرار إخوانهم في أرمينية العثمانية، كما أنه من المحتمل أن يكون تحريرهم باعثاً لعناصر أخرى خاضعة لروسيا للمطالبة بالاستقلال.[41] ولذلك قررت الحكومة الروسية الإبقاء على الوضع السياسي للأرمن في أرمينية العثمانية، واكتفت بأن أدرجت في معاهدة الصلح والمقصود بها معاهدة سان استفانو المادة "16" التي نصت على "تنفيذ الإصلاحات وضمان سلامة الأرمن من اعتداءات الأكراد والجراكسة وألا تنسحب القوات الروسية من المناطق التي احتلتها في أرمينية الغربية حتى تقوم الحكومة العثمانية بتنفيذ تلك الإصلاحات فوراً" كما تضمنت هذه المعاهدة "ضم روسيا أقاليم قارص وأردهان والآشجيرد وبايزيد من أرمينية الغربية، وإعادة إقليم أرضروم الذي كانت قد احتلته الدولة العثمانية".[42] وهكذا خرج الأرمن من معاهدة سان استفانو وقد تبددت آمالهم في الحرية والاستقلال.

وقد قدر لهذه المعاهدة ألا تجد طريقها للتنفيذ بسبب اعتراض الدول الأوربية عليها خاصة بريطانيا والإمبراطورية النمساوية — المجرية بحجة اختلال التوازن الدولي. ولكن كان السبب الأساسي هو انفراد روسيا بالمكاسب الهائلة في البلقان والقوقاز.[43] ولهذا دعت الدول الأوربية إلى عقد مؤتمر لتعديل مواد معاهدة سان استفانو فكان مؤتمر برلين 13 يونيه - 13 يوليه عام 1878م/ جمادى الآخرة - رجب 1295هـ الذي تعلقت آمال الأرمن عليه لتعديل وضعهم السياسي نحو الأفضل وكونوا وفداً برئاسة البطريرك الأرمني في استانبول، وفي المؤتمر قدموا التماساً طالبوا فيه بوضع نظام حكم للأرمن يكون على غرار النظام الذي وضع لحكم لبنان على أن يكون رئيسهم حاكماً مسيحياً أرمنياً.[44] ومعنى هذا أنهم يرغبون في تصعيد المسألة إلى أعلى مستوى دولي كما يفهم بأن مطالبهم اقتصرت على إقامة حكم ذاتي في نطاق الدولة العثمانية والاستغناء عن الاستقلال التام.

ولكن المؤتمر لم يأخذ باقتراح الوفد الأرمني رغم تأييد بريطانيا للمسألة الأرمنية واكتفى المؤتمرون باستبدال المادة "16" في معاهدة سان استفانو بالمادة "61" في معاهدة برلين والتي نصت على أن: "يتعهد الباب العالي وبدون تأخير بإدخال التحسينات والإصلاحات التي تستلزمها المتطلبات المحلية في الولايات التي يقطنها

---

(41) De Lausanne: Op. Cit, P. 327.

الشناوي، عبد العزيز: مرجع سابق، جـ3، ص ص 1548 – 1549.

(42) فريد، محمد: تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق إحسان حقي، بيروت، دار النفائس، 1986م، ص 659. = Macfie,A.L: The Eastern Question 1774-1923, New York, 1994, P. 44.

(43) الشناوي، عبد العزيز: مرجع سابق، جـ3، ص 1550.

(44) Karal: Op. Cit, P. 10.

الأرمن، وضمان أمنهم تجاه الجراكسة والأكراد كما يتعين على الباب العالي من حين لآخر أن يحيط القوى الكبرى التي ستقوم بالإشراف على تنفيذها علماً بأي أمر يتعلق بذلك".[45] وطبقاً لهذا فقد انسحبت القوات الروسية وحلت محلها مسؤولية أوربية جماعية من أجل تنفيذ الإصلاحات في أرمينية الغربية. ونتيجة لمواد مؤتمر برلين، أصبحت حدود روسيا متاخمة لأرمينية العثمانية بل أصبح في استطاعة الروس القفز إلى الأناضول ثم إلى العراق وشمال الشام.[46] واستغلت بريطانيا هذا التغير في الأوضاع السياسية والعسكرية لتنتزع موافقة السلطان عبد الحميد الثاني عام 1878م/ 1295هـ على أن تحتل جزيرة قبرص مؤقتاً بحجة اتخاذها كقاعدة للدفاع عن ممتلكات الدولة العثمانية للوقوف في وجه الزحف الروسي.[47] ولكن روسيا بعد أن فقدت الأمل في إنشاء دولة بلغاريا الكبرى في مؤتمر برلين عملت على إثارة المتاعب في وجه الدولة العثمانية عن طريق تشجيع الأرمن المستوطنين للولايات الست العثمانية في شرق الأناضول على المطالبة بالاستقلال التام أو تطبيق نظام الحكم الذاتي فيها بعد أن وعدتهم بمساعدات عسكرية وبتأييد سياسي.[48] إلا أن قيصر روسيا إسكندر الثالث Alexander III (1881 - 1894م/1299 - 1312هـ) لم يلبث أن تخلى عن تأييد الأرمن لأنه أدرك أن تشجيعه للأرمن لإضعاف الدولة العثمانية كان يصحبه نشر مبادئ ثورية من المحتمل أن تؤدي إلى قيام ثورات بين رعاياه من الروس.[49]

وبسبب حرص الدول الأوربية على مصالحها في مؤتمر برلين وعدم تعاملها مع المسألة الأرمنية بجدية، فقد أدى هذا إلى أن يعيد الأرمن حساباتهم ولذلك فقد تحولوا من أسلوب الإقناع إلى العنف من أجل تحقيق آمالهم.

تكونت العديد من الجمعيات واللجان الثورية الأرمنية سواء في داخل الدولة العثمانية أو في خارجها مثل روسيا وأوربا والولايات المتحدة الأمريكية. وقام الأرمن بطبع دوريات ونشرات أرسلوها إلى داخل الدولة العثمانية من خلال مكاتب البريد الأجنبية.[50]

واستخدم الثوار الأرمن العنف لإثارة المسلمين ودفعهم إلى نوع من الانتقام مما قد يرغم الدول الأوربية وخاصة بريطانيا وروسيا على التدخل، ولكن الشرطة العثمانية في الولايات استطاعت في معظم الأحيان أن تمنعهم من تحقيق أهدافهم. كما مُنع المسلمون من الرد على الأرمن بالمثل مما زاد من التوتر وصعوبة أن يعيش الأرمن والمسلمون

(45) فريد، محمد: مرجع سابق، ص ص 696 – 697.

(46) De Lausanne: Op. Cit, P. 324.

الشناوي، عبد العزيز: مرجع سابق، جـ3، ص ص 1554 – 1555.

(47) Shaw: Op. Cit, P. 190.

(48) Ibid: P. 202.

(49) De Lausanne: Op. Cit, P. 327.

(50) Karal: Op. Cit, P. 11.

الغالبي، سلوى سعد: مرجع سابق، ص 121.

في سلام كما كانوا من قبل.[51] ونقل الأرمن مسرح نشاطهم إلى خارج الدولة العثمانية للتخلص من الرقابة العثمانية والعمل بحرية أكبر[52] وسيطرت مجموعتان على الحركة: منظمة الهنشاك Hunchak (الناقوس) من الطلبة الأرمن في فرنسا وسويسرا وتأسست عام 1887م/1305هـ والاتحاد الثوري الأرمني أو الطاشناق Dashnak وتأسس عام 1890م/ 1308هـ في تفليس من أجل توحيد الثوار الأرمن.[53] وكانت خططهم ترمي إلى تكوين مجموعات عمل تتسلل إلى داخل الدولة العثمانية لمهاجمة موظفي الحكومة العثمانية والأرمن الموالين للحكومة على السواء والقيام باضطرابات على أساس أن هذا سُيؤدي إلى تدخل الدول الأوربية وبالتالي مساعدة الثوار على إقامة كيان أرمني في شرق الأناضول بعد أن يتم التخلص من المسلمين.[54] ولكن يبدو أن الهنشاك لم يوجه لهم الانتقام القاسي بحيث يستطيعون رفع قضيتهم إلى أوربا ولذلك نظموا انقلاباً كبيراً في ساسون، وعندما وصل الجيش لفرض النظام هرب الثوار للجبال بعد أن نهبوا القرى المسلمة تاركين الفلاحين الأرمن يدفعون الثمن حيث إن القوات النظامية وفيالق الحميدية[55] نهبت ساسون بعد أن شاهدت المآسي التي تعرضت لها القرى المسلمة.[56] وقد نُفذ هذا من جانب القوات العثمانية والزعامات المحلية دون تعليمات من الحكومة المركزية مما أدى إلى أن يتهم الثوار الحكومة العثمانية بتدمير خمس وعشرين قرية وإعدام عشرين ألف فلاح أرمني، وذلك رغبة منهم في إحداث رد فعل عام في أوربا مماثل لرد الفعل الذي أعقب الأحداث التي وقعت في بلغاريا.[57] وبناء على هذا كلفت لجنة مشتركة عثمانية — أوربية للتحقيق وأظهرت النتائج مبالغة ادعاءات الثوار الأرمن.[58] وحاول السلطان عبد الحميد الثاني تهدئة أوربا بإجراء الإصلاحات ليضمن عدم تدخل الدول الأوربية، ونظراً لاستجابة الدول الأوربية للسلطان قام الهنشاك بتفجير اضطرابات في استانبول فنظموا مظاهرة للاحتجاج على نتائج تقرير لجنة التقصي في 30 سبتمبر 1895م/ ربيع الآخر 1313هـ.[59] وسار المتظاهرون إلى السفارات الأجنبية ثم بعد ذلك إلى مقر الباب العالي

---

(51) Shaw: Op. Cit, PP. 202-203.

(52) تأسس أول حزب أرمني عام 1885م وهو حزب الأرميناجان في قان وهو الحزب الوحيد الذي تأسس في أرمينية ذاتها، وكان هدفه تحرير أرمينية بكل الوسائل كما لم يتبن هذا الحزب أي فكر اشتراكي. انظر: الإمام، محمد رفعت، القضية الأرمنية، ص 25.

(53) نفسه، ص 26.

(54) الشناوي، عبد العزيز: مرجع سابق، جـ3، ص 1566.

(55) فيالق الحميدية: وهي وحدات عسكرية منظمة وفق نموذج قوزاق روسيا أنشئت عام 1891م من عناصر كردية وتم دعمها في أوقات كثيرة بالأرناؤوط = والجراكسة. انظر: مانتران، روبير: مرجع سابق، جـ2، ص 219.

La Reforme, No, 151, Vendredi 10 sep 1896.

(56) De Lausanne: Op. Cit, PP. 346-347.
الشناوي، عبد العزيز: مرجع سابق، جـ3، ص 1568.

(57) Shaw: Op. Cit, PP. 203-204.

(58) Ibid: P. 204.

(59) Ministere des Affaires etrangeres: par le Ministre de S.M. Britannique a Paris, a M. Hanotaux, Paris, 20 October 1896, Numero, 277, De Lausanne: Op. Cit, P. 349.

واستعدت القوات العثمانية لاستعادة النظام، واعترض السفراء على أساس أن هذا الإجراء يستهدف الأرمن ولكن عندما أصبح الخطر يُهدد المناطق التي يقطنها الأوربيون سمحوا للحكومة العثمانية بإعلان الأحكام العرفية وإنزال القوات لإنهاء الاضطرابات.[60] وقد قابلت الحكومة العثمانية العنف بالعنف لا غبار على ذلك لأن مهمة أي حكومة في العالم المحافظة على النظام واستتباب الأمن العام في بلادها.

وتعرضت مدن وقرى كثيرة في الأناضول للتدمير منها قان ثم انتقلت المذابح إلى طرابيزون والرها، وبيره جك وغيرها من المدن. وتبع ذلك توجيه نداءات استغاثة إلى أوربا ذكرت أن المسلمين دائبون على ذبح المسيحيين بموافقة الحكومة العثمانية وأسرفت في تقدير عدد القتلى الأرمن وأنه وصل إلى مائتي ألف أرمني[61] والتزمت الدول الأوربية الصمت، فالحكومة البريطانية كانت منقسمة على نفسها بشأن التدخل وكانت روسيا تعارض أي عمل قد يجعل بريطانيا تنفرد بحل الأمر لأن ذلك في رأيها يشكل خطراً على المضائق. ولذا لم يحدث أي تدخل أوربي.[62] وخاب أمل الثوار الأرمن مرة أخرى.

ومن الواجب التذكير بأن الموجة الجديدة من العنف الأرمني جاءت في الوقت الذي وصل فيه مليون لاجئ مسلم مهاجرين من روسيا وبلغاريا والبوسنة جالبين معهم قصصاً مأساوية حول كيف أن أقاربهم وذويهم قُتلوا وكيف أُحرقت منازلهم ونُهبت لذلك لم يستغرق الأمر كثيراً لإثارة مشاعر الغضب بين المسلمين.[63] وواجهت الحكومة العثمانية تهديدات الثوار الأرمن بوسيلتين الأولى: هي استخدام هؤلاء المهاجرين في تعزيز العناصر الإسلامية على طول امتداد الحدود الروسية العثمانية، والثانية: هي الاستمرار في دعم فيالق الحميدية بالعناصر غير التركية مثل الأرناؤوط والجراكسة والأكراد بصفة خاصة.[64] ويبدو أن السلطان عبد الحميد الثاني سعى إلى تجنب حدوث تواطؤ بين الأكراد والأرمن، فعمل على تعزيز تضامن المسلمين بهدف الدفاع عن الأناضول الشرقية الموطن الأصلي للعثمانيين وقلب دولتهم والذي طمع الأرمن في أن يقيموا عليه دولة أرمنية. ومعنى هذا هو بتر قسم كبير من الوطن العثماني وتوجيه ضربة قاصمة إلى هيبة الدولة العثمانية.

وفى عام 1896م/1314هـ انتهز اليهود وعلى رأسهم قادة الحركة الصهيونية فرصة الاضطرابات الأرمنية وعرضوا على السلطان عبد الحميد الثاني بذل مساعيهم من أجل تسوية المسألة الأرمنية في مقابل موافقته على إنشاء دولة يهودية في فلسطين مستغلين الموقف الحرج

(60) Shaw: Op. Cit, P. 204.

(61) الشناوي، عبد العزيز: مرجع سابق، جـ3، ص ص 1567 – 1574.
حافظ، فؤاد حسن، مرجع سابق، ص 212.

(62) Shaw: Op. Cit, P. 204.

(63) زهر الدين، صالح: سياسة الحكومة العثمانية في أرمينيا الغربية وموقف القوى الدولية منها، بيروت، دار الندوة الجديدة، 1996م، ص ص 56 – 61.
Shaw: Op. Cit, P. 203.

(64) الإمام، محمد رفعت: القضية الأرمنية، ص 27.

الذي كانت تمر به الدولة العثمانية.[65] فمن جهة فإن الدول الأوربية كانت تسعى للتدخل في شؤون الدولة العثمانية تحت ستار تسوية المسألة الأرمنية، ومن جهة أخرى كان الرأي العام الأوربي ثائراً على السلطان عبد الحميد الثاني حتى شُبه في أوربا بلويس الرابع عشر،[66] كما أُطلق عليه اسم "السلطان الأحمر" و "الرهيب" و"السفاح".[67]

ولقد لقيت فكرة تدخل الصهاينة لدى الأرمن ترحيباً من السلطان لأنه كان يدرك أن اليهود يتقنون العمل المنظم وكانت لديهم قوى عديدة تضمن لهم النجاح في مسعاهم، فالمال متوفر لديهم كما كانوا يسيطرون على أهم العلاقات التجارية الدولية وكانت صحافة أوربا في قبضتهم فكان في مقدورهم التأثير على الرأي العام الأوربي متى شاءوا....[68] ولهذا استقبل السلطان زعيم الصهيونية تيودور هرتزل Theodore Herzl الذي حاول أن يقنع السلطان بالمشروع الاستيطاني في فلسطين. إلا أن السلطان رفض هذا الطلب، في الوقت الذي كانت فيه الخزانة العثمانية تعاني عجزاً كبيراً يصعب تعويضه بسهولة.[69]

أراد هرتزل من خلال مفاوضاته مع السلطان عبد الحميد الثاني أن يقنعه بأهمية التعاون بين الطرفين والاستجابة لمطلب الصهاينة كما قدم له عرضاً مالياً ضخماً يساعده في التغلب على المصاعب المادية التي كانت تعانيها الخزانة العثمانية وأيضاً عرض عليه إمكانية تشكيل فرقة عسكرية يهودية لدعم القوات العثمانية في فلسطين،[70] ولكن رفض السلطان لإغراءات هرتزل، لم يقنع هذا الأخير. وبقى يرسل الوسيط تلو الآخر لتليين موقف السلطان والتخلي عن تصلبه،[71] بينما كان عبد الحميد الثاني مدركاً بقلبه وعقله لأبعاد هذه المطامع فرد على الوسطاء بقوله: "انصحوا الدكتور هرتزل بألا يتخذ خطوات جديدة في الموضوع. إنني لا أستطيع أن أتخلى عن شبر واحد من الأرض فهي ليست ملك يميني، بل ملك شعبي، لقد ناضل شعبي في سبيل هذه الأرض، ورواها بدمه. فليحتفظ اليهود بملايينهم، وإن مزقت دولتي فلعلهم يستطيعون آنذاك أن يأخذوا فلسطين بلا ثمن. ولكن يجب أن يبدأ ذلك التمزيق أولاً في جثتنا، فإنني لا أستطيع الموافقة على تشريح أجسادنا ونحن على

---

(65) الخولي، حسن صبري: سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين في النصف الأول من القرن العشرين، مصر، دار المعارف، 1973م، جـ1، ص ص 75 – 80. الشناوي، عبد العزيز: مرجع سابق، جـ3، ص ص 1574 – 1575.

(66) La Reforme, No 168, Mercredi, 30 sep 1896.

(67) Denova, J.A: Armerican Interests and Policies I The Middle East 1900-1939, U.S.A, 1963, P. 6.
Times, London, 21 sep, 1896. =

= صالح زهر الدين: مرجع سابق، ص 75.

(68) الصلابي، علي محمد محمد: الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، بيروت، دار البيارق، 1999م، ص ص 699 – 700

(69) زهر الدين، صالح: مرجع سابق، ص 151.

(70) Shaw, Stanford: The Jews Of Ottoman Empire And The Turkish Republic, Hong Kong, Mackmillam Press, 1991, PP. 212-213.

(71) زهر الدين، صالح: مرجع سابق، ص 152.

قيد الحياة".[72]

وهكذا فشل الصهاينة في السيطرة على السلطان العثماني الذي لم يسمح لهم بتحقيق أحلامهم من أجل تسوية المسألة الأرمنية. كما أن جهود هرتزل الدبلوماسية لدى الحكومة البريطانية — من أجل إقناع الأرمن بالتخلي عن ثورتهم — أخفقت بسبب عدم تحمس الحكومة البريطانية لها لأن هذا يعني بالطبع تأييد سياسة السلطان العثماني الأمر الذي سيؤدى حتماً إلى إثارة الرأي العام البريطاني ضد حكومته.[73]

**حادثة احتلال البنك العثماني وتداعياتها:**

وبينما هدأت المذابح والاضطرابات في ولايات الأناضول الست، ظل الطاشناق هو الحزب الأرمني الوحيد النشط. وشهدت أستانبول عاصفة دموية في أغسطس 1896م/1314هـ على إثر الأعمال العنيفة التي قام بها الطاشناقيون الأرمن. إذ حركت اللامبالاة الأوربية حزب الطاشناق الذي أراد مزيداً من التصعيد للعمليات العنيفة حتى يبرهنوا للدول الأوربية على أنهم شعب يبتغي التحرر من الحكم العثماني.[74]

وحدث أن ضغط السلطان عبد الحميد الثاني على البطريرك الأرمني في أستانبول ماتيوس أزميرليان Matthews Ismirlian (1894-1896م/ 1312-1314هـ) واضطره إلى تقديم استقالته بسبب شبهات قوية حامت حول علاقته بالثوار الأرمن.[75] وعين السلطان مكانه البطريرك بارتولوميوس Bartholomeos [76] 1896م/1314هـ- بطريقه قيل أنها غير قانونية — وأنعم عليه بالنيشان المجيدى من الدرجة الأولى.[77] كما قرر السلطان العثماني انتهاج سياسة أكثر ليناً تجاه الأرمن وأمر بإطلاق سراح السجناء ما عدا الذين أُدينوا في جرائم قتل، وأرسل إلى حكام الولايات بمعاملة الأرمن والمسلمين على قدم المساواة والاهتمام بتنفيذ الإصلاحات.[78] ولكن بمحاذاة الروح البناءة التي تمتع بها السلطان عبد الحميد الثاني كان الطاشناقيون يجهزون المسرح في استانبول من أجل استعراض أرمني — عثماني جديد.

وتعلق الأمر هذه المرة بالبنك العثماني **Ottoman Bank** الذي يقع في قلب حي جالاتا باستانبول وهو حي البنوك في العاصمة. وكان عثمانياً فقط بالاسم إذ إنه كان من الناحية الجوهرية الأداة الرئيسية التي من خلالها كان

(72) Shaw: The Jews, P. 213.
السلطان عبد الحميد: مذكرات، ترجمة وتقديم محمد حرب، دمشق، دار القلم، 1991م، ص 142.

(73) الصلابي، علي محمد محمد: مرجع سابق، ص 701.

(74) Walker, Christopher.J: "From Sasun to the Ottoman Bank. Turkish Armenians in The Mid-1890.'s." (The Armenian Review, Vol 31, 3-123, March, 1979), P. 253.

(75) المقطم، العدد 2263، 31/ 8/ 1896.
لسان العرب، العدد، 634، 14/ 9/ 1896.
La Reforme, No 143, Mardi, 1 sep, 1896.

(76) لم يعترف الأرمن بالبطريرك بارتولوميوس باعتباره عين من قبل السلطان عبد الحميد الثاني ولم يتم انتخابه عن طريق الملة الأرمنية.

(77) Sonyel: Op. Cit, P. 209.

(78) Ibid: PP. 209-210.

الرأسماليون الأجانب يمارسون أعمالهم في الدولة العثمانية. كان البنك معزولاً من ثلاث جهات والرابعة كانت متصلة بمخزن للتبغ.[79]

وفي يوم الأربعاء 26 أغسطس 1896م/ربيع أول 1314هـ وفي الساعة الواحدة والربع بعد الظهر كان البنك خالياً تقريباً، بينما كان الموظفون يتناولون غذاءهم، ولم يغادر البنك إلا مجموعة قليلة، فقط دخل رجلان كان يبدو عليهما أنهما من رجال الأعمال ولكنهما في الحقيقة كانا زعماء الجماعة الأرمنية المسلحة، ودخل كلاهما إلى البنك بحجة أنهما يُريدان استبدال بعض العملات. وفي اللحظة المناسبة، عادا مرة أخرى إلى مدخل البنك وأعطيا إشارة دخل على إثرها أربعة آخرون من أعضاء الجماعة إلى البنك وهم في زي حمالين، وعلى أكتافهم حقائب تُشبه تلك التي تُستخدم في نقل الفضة، ولكنها في الحقيقة كانت مليئة بالقنابل والديناميت والذخيرة. وما إن دخل هؤلاء الرجال بسلام إلى البنك حتى انطلقت صافرة وأسرع المزيد من الرجال إلى داخل البنك من الطرقات المجاورة حتى أصبح عددهم خمسة وعشرين رجلاً.[80] وخوفاً من اعتبار العملية سرقة جنائية، أعلنوا على الفور أنهم من الأرمن أعضاء حزب الطاشناق.[81]

وأثناء تبادل إطلاق النار قتل اثنان من سعاة البنك، ولكن كبير السعاة الذي تظاهر بالموت وسمح للمقتحمين بالمرور فوق جسده الملقى على الأرض، نهض وأطلق الرصاص على اثنين من الأرمن. وعقب دخول الأرمن إلى البنك، ألقوا بالقنابل كما أطلقوا النيران من خلال نوافذ البنك وحاولوا في الوقت نفسه إغلاق باب البنك الرئيسي، غير أنه واجهتهم صعوبات جمة بسبب الزجاج المتناثر على الأرض والدخان الكثيف للقنابل، ونجحوا في إغلاق الباب بعد ثلاث ساعات من المحاولات المضنية. بيد أنهم فقدوا أثناء هذه المحاولة أربعة منهم. بعدها قاموا بتحصين الأبواب والنوافذ وطوال هذه الفترة، كانت المعركة تدور بين الشرطة والأرمن في الشوارع المجاورة للبنك.[82]

أثناء هذا تمكن مدير البنك إدجار فينسينت Edgar Vincent من الهروب - من خلال فتحات التهوية بالطابق العلوي - إلى مخزن التبغ المتصل بمبنى البنك. وتبعه في ذلك نائبه م.ريفيز M.Reeves ، بينما كان المدير المساعد أيوبوينوا Aubeyneau سيئ الحظ حيث كان في هذه الأثناء في الطابق السفلي بين موظفيه في قسم استبدال العملات وتم احتجازه مع حوالي مائة وخمسين رهينة من موظفي البنك وعملائه.[83] وأثناء

(79) Walker: Op. Cit, P. 253.

(80) اختلفت المصادر في عدد هؤلاء المهاجمين للبنك ما بين 40، 26، 25، 24 إلا أن أغلبها أجمع تقريباً على أنهم 25.

(81) Sonyel: Op. Cit, P. 210.
Walker: Op. Cit, P. 253.
= الأهرام، العدد 5603، 28/ 8/ 1896.
مصر، العدد 195، 28/ 8/ 1896.
الشرق، العدد 14، 31/ 8/ 1896.
الإخلاص، العدد 66، 1/ 9/ 1896.

(82) Sonyel: Op. Cit, P. 210.

(83) Ibid: P. 210.

المعركة التي استمرت لمدة ساعة، كانت القنابل تُلقى على الشرطة العثمانية من داخل البنك وكانت الشرطة تُطلق النار على أي شئ يبدو أنه يتحرك داخل البنك. وعقب هذا أيقنت السلطات العثمانية أنها لن تستطع فعل شيئ من أجل إخراج الأرمن الذين بلغ اليأس بهم مداه ومستعدين لنسف البنك بمن فيه بدلاً من الاستسلام. وبالفعل توقف الرعب تدريجياً وانسحبت قوات الشرطة والجيش من الشوارع المجاورة للبنك.[84]

ومع أول إفاقة من الصدمة، بدأ موظفو البنك في التحدث مع المحتلين، وقال لهم الطاشناقيون إنهم قد قاموا بهذا العمل من أجل لفت انتباه الدول الأوربية إلى المسألة الأرمنية والعمل على إدخال الإصلاحات والتغيرات السياسية للأرمن.[85] وأنهم سوف يحتلون المبني لمدة ثمان وأربعين ساعة، وإذا لم يقم السفراء خلال هذه المدة بضمان تنفيذ مطالبهم وإحداث الإصلاحات السياسية فوراً، فإنهم سيقومون بنسف البنك. وكانت مطالبهم قد كتبت من قبل في الخطابات التي أرسلتها ووجهتها اللجنة الثورية إلى السفارات نيابة عن الشعب الأرمني. الخطاب الأول وُجه إلى الحكومة العثمانية في اليوم السابق على تنفيذ احتلال البنك، والثاني كُتب مسبقاً ليُقدم إلي السفارات بعد احتلال البنك، والثالث وُجه فقط إلى القائم بأعمال السفارة الفرنسية كتب ليُرسل بعد تسليم البنك إلى السلطات.[86]

في الخطاب الأول، وجه الأرمن إلى الحكومة العثمانية مسؤولية إجبار البطريرك ماتيوس إزميرليان على الاستقالة وإلغاء المجلس الملي واستبداله ببعض العلمانيين والقساوسة الموالين للقصر الذين صدرت لهم الأوامر بانتخاب بارتولوميوس أسوأ رجال الكنيسة كبطريرك بالأمر، وقامت الملة الأرمنية بإعلان اعتراضها ضد هذا الخرق الدستوري، كما قاموا أيضاً بتوجيه اللوم إلى الدول الأوربية لأنهم جعلوا من أنفسهم شركاء للباب العالي.[87]

أما الخطاب الثاني فكان للسفارات، وأعلنوا فيه أنهم أرسلوا الاحتجاجات بلا توقف إلى أوربا ضد التعسف العثماني. ولكن راحت اعتراضاتهم المشروعة هباءً وبقيت على الدوام مهملة. كما أن أوربا قامت بكل وقاحة بفرض وصايتها على الأرمن وإهانتهم عندما رفضت الاعتراف بحقوقهم المشروعة. وكتبوا قائلين إننا لا نستطيع أن نتحمل أكثر من ذلك وأن وقت اللعب الدبلوماسي قد انتهي. وتقدموا في الخطاب بمجموعة من المطالب وكانت تتلخص في التالي:

أولاً : تشكيل لجنة جديدة تتولى التحقيق في أحداث المذابح التي وقعت في الولايات الأرمنية الست.

---

(84) Walker: Op. Cit, P. 253.

(85) مصر، العدد 196 في 29/ 8/ 1896.
الإخلاص، العدد 66 في 1/ 9/ 1869.

(86) The Halifax Herald, Friday, 28 Aug, 1896.
Walker: Op. Cit, PP. 253-254.

(87) Sonyel: Op. Cit, P. 211.

ثانياً : تعيين ولاة مسيحيين لحكم الولايات الأرمنية، وأن يكون نوابهم بلقب قائمقام وأن يكونوا مسيحيين أيضاً.

ثالثاً : تشكيل قوات مسيحية من الشرطة والجندرمة والمليشيا تحل محل القوات الإسلامية العثمانية في الولايات الأرمنية.

رابعاً : إعفاء الأرمن من جميع الضرائب لمدة خمس سنوات، ثم تخفيض هذه الضرائب بعد انقضاء السنوات الخمس بنسبة 80٪. ويدفع الأرمن 20٪ من الضرائب المقررة عليهم تعويضاً للأرمن عن الخسائر الفادحة التي تحملوها في الأرواح والأموال الثابتة والمنقولة.

خامساً : إصدار عفو عام عن جميع الأرمن مرتكبي حوادث المذابح والعمليات الإرهابية أو المتهمين فيها، وإرجاع كافة الممتلكات التي صادرتها الحكومة إلى ذويها.

سادساً : زيادة الاعتمادات المالية التي تخصصها الحكومة المركزية في استانبول للإنفاق الحكومي في الولايات الأرمنية الست في مجالات إنشاء المدارس على اختلاف درجاتها ونوعياتها وكذلك المشروعات ذات المنفعة العامة.[88] ولا جدال في أن هذه المطالب كانت في مجموعها مطالب تعجيزية للسلطان العثماني الذي لم يكن في مقدوره أن يستجيب لتحقيقها وإلا اهتز مركزه اهتزازاً عنيفاً في نظر رعاياه وفي نظر الدول الأوربية.

وفي هذه الأثناء حاول اللورد سالسبوري Lord Salisbury[89] الحصول على تأييد روسيا والقيصر الجديد نيقولا الثاني Nicholas II (1894-1917م/1312-1336هـ) من أجل دخول السفن الحربية البريطانية إلى استانبول لإقناع السلطان عبد الحميد الثاني بتنفيذ مطالب الأرمن. غير أن روسيا خشيت أن يؤدي هذا إلى تقوية شوكة بريطانيا ويضاعف من نفوذها. لذا انضمت إلى فرنسا في رفضها أي تحرك فردي للضغط على السلطان.[90]

أما الخطاب الثالث الموجه إلى القائم بأعمال السفارة الفرنسية، فقد أعلنوا فيه أنهم لن يتركوا البنك لمدة يومين وطالبوا بالتدخل الأوربي لتأمين سلامة البلاد، وضرورة قبول المطالب التي تقدمت بها اللجنة المركزية للاتحاد الثوري الأرمني (الطاشناق) في استانبول وعدم استعمال القوة ضدهم وتأمين حياة كل هؤلاء الذين كانوا في البنك والذين اشتركوا في الاشتباكات التي دارت في المدينة، وفي المقابل ستبقى محتويات البنك سليمة لن تمسسها أياد إلى أن يتم تنفيذ هذه المطالب. أما إذا لم تُنفذ، فإن كل الأوراق الخاصة بالتعاملات والنقود سوف تُدمر معهم في البنك.[91]

---

(88) مصر، العدد 207، 12/ 9/ 1896.
Shaw: The Ottoman, P. 205.
La Reforme, No 150, 9 sep, 1896.

(89) سياسي بريطاني وأحد زعماء حزب المحافظين.

(90) De Lausanne: Op. Cit, PP. 357-358.
Shaw: The Ottoman, P. 205.

(91) Sonyel: Op. Cit, PP. 211-212.

أما عن الأوضاع داخل البنك، فقد كانت المفاوضات مستمرة بين الثوار والرهائن، ووافق المحتلون على السماح للمدير المساعد ايوبوينوا بالخروج — بعد أن تعهد بالعودة — والذهاب إلى القصر ليشرح الموقف لمدير البنك إدجار قينسينت الذي توجه بعد هروبه مباشرة إلى القصر حيث كانت تعقد جلسة طارئة لمجلس الوزراء، واتفق الاثنان على أن الحل الوحيد لإنقاذ البنك هو التفاوض مع المحتلين بمساعدة بعض الشخصيات المرموقة من أعضاء السفارات الأوربية. وصادف هذا تواجد القنصل الروسي ماكسيموف Maximov في القصر الذي وافق على المشاركة في المفاوضات مع الثوار بصفة شخصية دون اللجوء إلى تعليمات رسمية. وبعد مناقشة مطولة مع رئيس الوزراء، وافق السلطان على منح المحتلين عفواً والسماح لهم بالخروج من البلاد دون أي اعتقال.[92]

توجه ماكسيموف إلى البنك وتحدث إلى المحتلين. وبعد حوالي ثلاث ساعات من المباحثات وافق زعيم المحتلين بمضض على الشرط المطروح ولكنه أصر على أن يتم نقلهم على متن اليخت الخاص بمدير البنك إدجارقينسينت وأن يحتفظوا بأسلحتهم. (باستثناء القنابل والديناميت) وأن تتم زياراتهم من قبل قناصل السفارات الأوربية في اليوم التالي من أجل مناقشة مطالبهم.[93]

وفي حوالي الساعة الثانية والربع من فجر اليوم التالي قاموا بإخلاء البنك ومن الخمسة والعشرين رجلاً ركب خمسة عشر[94] منهم على متن يخت إدجار قينسينت المسمى جولنار Gulunar،[95] بينما لقي أربعة منهم مصرعهم وجُرح ستة آخرون أثناء الاقتحام[96] بينما كانت الخسائر العثمانية قد أُحصيت بتسعة وعشرين جندياً وبعض القتلى من المدنيين. وعلى متن اليخت تم التحاور مع الطاشناقيين بواسطة سكرتير مدير البنك ويسمى ف. إي. باركر F.E.Barker. ومن خلال حديثه معهم تأكد أن أحداث يوم 26 أغسطس/ربيع الأول كان قد خُطط ودُبر لها منذ ثلاثة أشهر بواسطة اللجان الثورية الخارجية، وجاء رؤساء المجموعات الثورية المختلفة إلى استانبول قبل ثلاثة أسابيع من التنفيذ.[97] وكان الهدف الذي اقتحموه جزءاً من الخطة حيث كانوا قد خططوا أيضاً لمهاجمة الباب العالي، والبطريرك الأرمني، وفي جالاتا

(92) Ministere des Affaires etrangeres: M. de La Bouliniere, Charged affaires de France a Constantinople, a M. Hanotaux, Therapia, Le 3 September, 1896.

(93) The Contemporary Review, New York, . October, 1896.
Walker: Op. Cit, P. 255.
Aspiration et agissements revolutionnaires des comites Armeniens avant et après la proclamation = de la constitution ottomane, documents, publications du premier Ministere, Ankara, 2001, PP. 19-20.

(94) اختلفت المصادر في عدد الأرمن المغادرين ما بين ص ص 15-17 ولكن إحصاء القتلى والجرحى يجعلنا نرجح أنهم 15.

(95) جلنار: يعنى حب الرمان.

(96) مصر، العدد 196 في 1896/8/29.
المقطم، العدد 2273 في 1896/9/12.

(97) Sonyel: Op. Cit, P. 212.

خططوا لمهاجمة بنك الكريدى ليونيه Credi Lyonnais Bank، واقتحام كنيسة آيا ترياداا اليونانية في بيرا، وقصر جالاتا سراى، ونقطة شرطة قويقودا من أجل العمل على منعهم من إرسال إمدادات للبنك. وكانت الأحداث سيُواكبها إلقاء القنابل على قوات الشرطة من أجل تحويل الأنظار عن المواقع التي كانوا يرغبون في احتلالها.[98]

خطط الطاشناقيون الأرمن لاستهدف البنك العثماني والكريدى ليونيه لأن الاثنين يحتويان على أشخاص من مختلف الجنسيات حتى إن كل الدول الأوربية كانت ستقوم بمساعدتهم لينالوا مطالبهم من العثمانيين، بل إن العديد من الأسواق المالية كانت ستُعاني خسائر فادحة إذا قاموا باستعمال ما معهم من قنابل وديناميت في تدمير البنك.[99]

كان أغلب المحتلين من الرعايا العثمانيين ما عدا اثنين من الروس انتمى بعضهم إلى طبقات ميسورة وآخرون إلى طبقة العمال، تراوحت أعمارهم بين السابعة عشرة والثلاثين عاماً. جاء بعضهم من القوقاز ومن أثينا رغبة منهم في إنقاذ الفلاحين الأرمن من الظلم العثماني، كما كانوا يقولون إن هناك المئات مثلهم وهم مستعدون للتضحية بحياتهم من أجل نفس الهدف.[100] وعندما أثار معهم السيد باركر نقطة أن أعمالهم هذه سوف تحجب عنهم وعن المسألة الأرمنية تعاطف الدول الأوربية وتتسبب في مذبحة للأرمن أجابوا: "إن هؤلاء الذين سيموتون سُيعدون مواطنين شهداء".[101] أما بالنسبة لتعاطف الدول الأوربية فإنهم يستطيعون أن ينالوه ببقائهم في البنك. ذكر باركر في ملاحظاته أن هؤلاء الأرمن مستعدون للعودة مرة أخرى إلى استانبول عبر مقدونيا وأنهم كانوا في غاية الشوق لمعرفة ما إذا كان رفقاؤهم قد استطاعوا أن يتسببوا مثلهم بنفس هذا القدر من الخسائر بقنابلهم، كما أخبروا باركر أيضاً أنهم كانوا ينوون قتل كل الموظفين العثمانيين في البنك قبل نسفه، ولكن لم يكن لديهم وقت لتنفيذ الفكرة حيث إن العملية انتهت قبل الموعد المحدد لها.[102] بهذا، فشلت عملية الاقتحام الأرمني للبنك العثماني ومعظم الخطط والهجمات من أجل حمل أوربا على الاهتمام بالمسألة الأرمنية بسبب نقص الخبرة في اتخاذ القرار من جانب هؤلاء الطاشناقيين.

لكن على أية حال، كان كثير من الثوار الأرمن يتمركزون في جالاتا وبازماتيا وبيرا مسلحين بالقنابل والبنادق، وعرف أهل استانبول من المسلمين هذا الأمر، فراحوا يُهاجمون الأرمن في كل مكان وانضم إليهم اليهود[103] ينزلون العقاب

(98) The Halifax Herald, 1 sep, 1896.

(99) الرأي العام، العدد 32 في 4/ 9/ 1896.
مصر، العدد 207 في 12/ 9/ 1896.

(100) La Reforme, No 148, 6 sep, 1896.
المقطم، العدد 2268 في 1896/9/7.

(101) Sonyel: Op. Cit, P. 213.

(102) Ibid: P. 213.

(103) كان العداء بين اليهود والأرمن قديماً بسبب المنافسة بينهما على الأنشطة التجارية والمالية داخل الدولة العثمانية كما أن حاخام اليهود الأكبر أرسل إلى =

بالأرمن، ووقعت حوادث متفرقة في أنحاء العاصمة ولعدة أسابيع بعدها، ظل الثوار الأرمن يُلقون بالقنابل ويُطلقون النيران على القوات العثمانية بشكل عشوائي. ولم يكن هناك أحد يشعر بالتعاطف مع مثل هذا النوع من التصرفات التي تُعبر عن الرأي الشخصي للجان الثورية الزاعمة أنها تم استدعاؤها لتجعل من الشعب الأرمني كله شهداء.[104] ووصفهم القنصل البريطاني هربرت Herbert - كما كتب في تقريره — بالـ"مجرمين" الذين لم يدانوا بشدة.[105]

وطبقاً للرواية العثمانية ، ورد في التقارير عن الحادث أن اللجنة المركزية للثوار الأرمن في استانبول نظمت برنامجاً للاقتحامات والأعمال الإجرامية المتلاحقة التي لا أمل في النهاية من ورائها، ولهذا الغرض انضم العديد من المتطوعين إلى فرق عديدة وبدأوا في أعمالهم المستفزة في توقيت واحد في جميع أنحاء العاصمة. وكانوا مسلحين بالمسدسات والبنادق والقنابل عندما دخلت مجموعة منهم القاعة الرئيسية للبنك العثماني يوم 26 أغسطس/ربيع الأول. وقد سألهم أحد الحراس عما يريدون عند دخولهم البنك فقتلوه وقاموا بإغلاق أبواب البنك وبدؤوا أعمالهم التخريبية بالإلقاء المستمر للقنابل على المشاة في الشوارع وإطلاق النيران على العديد من الأبرياء المسالمين من المواطنين، وكان من ضمن ضحاياهم أربع سيدات تركيات كن يسرن عبر الطريق عندما انفجرت فيهن قنبلة. في الوقت نفسه، قام وزير الداخلية بالتجول في الشوارع يدعو الناس إلى التزام الهدوء وجابت القوات الشوارع ونصحت الناس بعدم التجمهر، وصرح توفيق باشا وزير الخارجية أن الشعب المسلم الذي وجه الطاشناقيون هجماتهم إليه قد تسبب في بعض الخسائر أثناء اندفاعه للدفاع عن نفسه. ومن ناحية أخرى كان معظم الشعب الأرمني المساند للحكومة يشعر بالخجل والعار من هذه الجرائم التي ارتكبها عدد من أبناء جلدتهم المذنبين حتى إن البطريرك الأرمني بارتو لوميوس أصدر قراراً بعدم الاتصال مع كل زعماء ومخططي هذه العمليات الفوضوية. وكان هذا التصرف من الرئيس الديني الأرمني — كما علق توفيق باشا — هو وحده كافياً لتحجيم الجناة الذين جعلوا من أنفسهم الأدوات لقضية وصفتها أوربا

---

= رئيس الوزراء العثماني يعلن عن امتنانه للسلطان لحمايته لليهود. كما أنه اشتكى من الأرمن الذين حاولوا تحويلهم عن اليهودية التي ظلوا يحافظون عليها في ظل التسامح الإسلامي. وذكر بأن الأرمن في الرها وبتليس قاموا بذبح وسلب ونهب العديد من أبناء الجالية اليهودية.

انظر: Sonyel: Op. Cit, P. 205.

(104) Ministere des Affaires etrangeres: M.P.Combon, Ambassadeur de La Republique Francaise a Constantinople, a M. Hanotaux, Therapia, 18 October, 1896, Numero 273.

المقطم، العدد 2275 في 1896/9/14.

(105) Sonyel: Op. Cit, P. 214.

المتحضرة بأنها دعوة إلى الفوضى والهدم والعنف.[106] كان هذا هو ملخص الرواية العثمانية عن الأحداث.

وبعد قضاء ليلة 26 أغسطس/ربيع الأول على متن اليخت جولنار تحت حراسة السفن الحربية البريطانية والفرنسية وبضمان مندوبي السفارتين، وفي اليوم التالي قام قناصل كل من روسيا وبريطانيا وفرنسا بزيارة الثوار الأرمن، وأثناء الزيارة حاولوا أن يشيروا إليهم بمدى حماقة وإجرام ما فعلوه. ولكنهم أجابوا عليهم بأنهم مصممون بإصرار على العودة إلى الدولة العثمانية والبدء من جديد وأن غيرهم سيحملون لواء العمل في غيابهم.[107] وبعد هذا تم تجريدهم من السلاح وترحيلهم على متن سفينة البريد الفرنسية جيروند Gironde التي أقلتهم إلى ميناء مرسيليا الفرنسي ومنه تم نقلهم إلى نيويورك ثم إلى تورنتو بكندا.[108]

وبينما كان الطاشناقيون يمتطون السفينة مبحرين إلى مرسيليا، تركوا خلفهم الأرمن يُكفرون — لأوقات طويلة — عن "جريمتهم الإرهابية" دون تلبية مطالبهم خصوصاً أن الأرمن قد أقدموا بعد حادثة البنك على مهاجمة مقر الباب العالي واقتحم عدد منهم مكتب الصدر الأعظم بهدف قتله. كما هاجمت جموع أرمنية أخرى السوق القديم باستانبول وألقوا القنابل على المحلات التجارية.[109] ونتيجة لتلك الاضطرابات فقد ظهرت جماعات عثمانية في شوارع استانبول للاعتداء على الأرمن، بعضهم من القطاعات الأكثر جهلاً والأيسر استثارة من الشعب، بينما كان بعضهم الآخر من طلبة المدارس الدينية.[110] ومما هو جدير بالذكر أن بعض العثمانيين لم يقدموا من تلقاء أنفسهم على قتل الأرمن، بل فعلوا ذلك على مضض بضغط من حكومتهم كما كان كثير من العثمانيين كانوا يخفون الأرمن في منازلهم عن مأموري الحكومة.[111]

وعندما جاءت الباشبوزوق (القوات غير النظامية) بدؤوا العنف والقتل والسلب، فأي أرمني كان يقابله هؤلاء الباشبوزوق يُذبح أو يُضرب حتى الموت ونُهبت المحلات الأرمنية في جالاتا، ولم تكن أغلبية الأرمن القتلى من الثوار أو الرأسماليين، بل كان بعضهم من العمال الفقراء المهاجرين إلى استانبول من ولاية سيواس التي أضحت غير صالحة للسكنى. زد على هذا، أن الأرمن أُبيدوا كلية في حي قاسم باشا وفي الحي اليهودي بـ "خاسكوى"[112] بسبب تعاون اليهود مع العثمانيين.

---

(106) Ibid: PP. 214-215.

(107) La Reforme, No 143, Mardi, 1 sep, 1896.
Sonyel: Op. Cit., P. 215.
مصر، العدد 197 في 31/ 8/ 1896.

(108) The Halifax Herald, Tuesday, 15 Dec, 1896.
Aspiration et agissements revolutionnaires, op. cit, p. 20.

(109) الشناوي، عبد العزيز: مرجع سابق، ج3، ص 1577.

(110) Times, London, 2 sep, 1896.

(111) The Contemporary Review, October, 1896.
المقطم، العدد 2275 في 1896/9/14.

(112) الإمام، محمد رفعت: القضية الأرمنية، ص 29.
Walker: Op. Cit, P. 256.
La Reforme, No 150, 9 sep, 1896. =

ولم تكن ساحة الرعايا الأرمن مبرأة تماماً، فقد تم العثور على القنابل في منازلهم وكنائسهم ومدارسهم.[113] واستمر القتل في شوارع استانبول خلال اليوم التالي 27 أغسطس/ربيع الأول. وقُدر عدد القتلى خلال هذين اليومين من خمسة إلى ستة آلاف قتيل.[114] ولم يتوقف القتل إلا عندما ترامت الأخبار إلى الباب العالي في المساء بأن الغواصات البريطانية قد تحركت لـ"حماية حياة البريطانيين".[115]

وفي الوقت نفسه، طارت الأنباء المبالغ فيها من داخل العاصمة وأرسلت إحساساً بالرعب سرى عبر كل أنحاء أوربا. وكان رد الفعل الأول من جانب سالسبيوري أنه أعلن عن وجوب تنحي السلطان عبد الحميد الثاني عن الحكم. وشاركه في رد الفعل هذا الإمبراطور الألماني وليم الثاني William II (1888-1918م/1306-1337هـ) الذي كثيراً ما اتهم بأنه متعاطف مع السلطان عبد الحميد. كما تحدث القائم بأعمال وزير الخارجية الألمانية البارون فون مارشال Von Marschall بكل جدية إلى غالب بك السفير العثماني في برلين حول الفوضى التي سادت العاصمة العثمانية، وأخبره بأنه يجب على السلطان أن يضع نهاية لهذه الفوضى التي استمرت لفترة طويلة. غير أن الموقف اختلف في كل من النمسا وروسيا. فقد أبرق السفير العثماني في فينا إلى الباب العالي يُخبره بأن إمبراطور النمسا أبدى تعاطفه مع السلطان. كما فعل ذلك أيضاً قيصر روسيا وصرح خلال حديث له مع السفير العثماني أنه ليس لديه أي تعاطف مع الأرمن الذين قاموا بمثل هذه المحاولة في القوقاز، وأن بريطانيا هي الدولة الوحيدة التي تساندهم.[116]

وهكذا ساعد الموقف الدولي السلطان عبد الحميد الثاني على تجاوز هذه الأزمة بسبب اختلاف وجهات نظر الدول الأوربية وذلك لتضارب مصالحها ولإيضاح ذلك يكفي أن نقتبس من مذكراته هذه السطور: "كنتُ أعلم في تلك الأيام بأنباء تصادم إنجلترا وروسيا في الشرق الأقصى، فلا روسيا ولا إنجلترا، ولا أيضا فرنسا التي تعمل حساباً لألمانيا، يستطيعون التدخل بشكل جدي. وبالفعل لم يتدخلوا.. لكن الدول الكبرى كانت تعرف أني لن أعطي الاستقلال الذاتي لهؤلاء الأرمن المبعثرين الذين لا يكونون أكثرية في أي مكان قط. وكانت تعرف أني سأستطيع أن أضع عيني على كل شيء"،[117] وهكذا أصبحت المسألة الأرمنية من المسائل التي تشغل الرأي العام العالمي، لكنها لم تكن بالمسألة الجادة دولياً...

---

- المقطم، العدد 2282، 1896/9/22.

(113) مصر، العدد 214، 21/ 8/ 1896.
الإخلاص، العدد 69، 22/ 9/ 1896.
الأهرام، العدد 2629، 28/ 9/ 1896.

(114) Times, London, 15 sep, 1896.
الإخلاص، العدد 67 في 8/ 9/ 1896.

(115) الإمام، محمد رفعت: القضية الأرمنية، ص 29.

(116) Sonyel: Op. Cit, PP. 215-216.

(117) السلطان عبد الحميد: مرجع سابق، ص ص 127-128.

ورغم عدم اتحاد مواقف الحكومات الأوربية من الأرمن، إلا أن السفراء الأوربيين في العاصمة العثمانية استطاعوا أن يتحدوا في يوم 31 أغسطس/ربيع الأول وهو ذكرى تولي السلطان عبد الحميد الثاني الحكم حيث رفض السفراء المشاركة في الاحتفال كما رفضوا إضاءة السفارات كنوع من التعاطف مع الأرمن.[118] أما الولايات المتحدة الأمريكية فقد كانت حريصة على التمسك بمبدأ مونرو الذي كان يحظر عليها التورط في المسائل الأوربية، رغم أن الأرمن كانوا قد حظوا بعطف كبير من الحكومة الأمريكية وشعبها.[119]

وفي استانبول استمرت حوادث العنف لمدة أربعة أسابيع واستمرت اللجان الثورية الأرمنية في إرسال التهديدات وبخاصة الطاشناق، ولكن من المفارقات أنهم لم ينجحوا تماماً في الاستفادة من اضطرابات استانبول في الولايات العثمانية وذلك لأن أصداء هذه الاضطرابات خارج استانبول كانت ضئيلة جداً. باستثناء مكان واحد هو إيجين فقد وقعت فيه أحداث خطيرة في يومي 14-15 سبتمبر 1896م/ربيع الآخر 1314هـ عندما أشعل الأرمن النار في الحي الإسلامي، ثم انسحبوا إلى المناطق الجبلية. وتم إرسال القوات العثمانية لحماية القرى المجاورة، كما أرسل الباب العالي أوامره إلى حكام الولايات بضرورة تفادي الفوضى وحذرهم من أنه سيحملهم المسؤولية إن هم فشلوا في احتواء أو منع الفوضى والدمار.[120]

كما قام الباب العالي أيضاً باتخاذ التدابير اللازمة من أجل الحيلولة دون دخول الثوار الأرمن للبلاد من الخارج حتى لا ترغم الحكومة العثمانية على الدخول في أية مهاترات معهم، خصوصاً أنهم كانوا في حالة من اليأس تصل إلى الحد الذي جعلهم مستمرين في إرسال خطابات التهديد إلى سفارات الدول الأوربية. وفي واحد من هذه الخطابات بتاريخ 10 سبتمبر 1896م/ربيع الآخر 1314هـ، تناولوا الأوضاع الراهنة وزعموا أن السفارات عادت مرة أخرى تخطب ود القصر، بحجة إنقاذ الأرمن من الموت، وبنفس الحجة فإن السفارات تُسهم في إخراجهم من استانبول، وقد أعطت هذه السفارات الأرمن انطباعات يُفهم منها أن حكوماتهم ستُضحي بالمطالب الأرمنية من أجل السلام الأوربي منساقين وراء الصراع على مصالحهم التي لاتُعطيهم الحق في محو آمال الأرمن، كما قالوا في الخطاب أيضاً إن السفارات أصبحت لعبة في أيدي عصابة من اللصوص والسفاحين في يلديز والذين يُدبرون لمحو الجنس الأرمني. وما لم تتوقف عمليات التهجير والسجن الجماعي وتطبيق الإصلاحات بشكل مناسب فإنهم سوف يقومون بتدمير شامل لأنفسهم ولكل من يقف في طريقهم..... [121] وقد أخذ السفراء هذا

(118) الأهرام، العدد 5607 في 2/ 9/ 1896.
الإخلاص، العدد 67 في 8/ 9/ 1896.
الرأي العام، العدد 33 في 11/ 9/ 1896.

(119) لمعرفة المزيد عن موقف الولايات المتحدة الأمريكية من القضية الأرمنية انظر: الغالبي، سلوى سعد: مرجع = سابق، ص ص 119-132.

(120) La Reforme, No 171, Samedi, 3 Oct, 1896.
Sonyel: Op. Cit, P. 217.

(121) الإخلاص، العدد 66 في 1/ 9/ 1896.
Sonyel: Op. Cit, P. 217.

التهديد بمحمل الجد. وبناءً على هذا أرسلوا نسخة من الخطاب إلى وزير الخارجية العثمانية مطالبين الحكومة العثمانية باتخاذ الإجراءات اللازمة من أجل ضمان الأمن العام. ازداد التوتر في العاصمة العثمانية ومن أجل العمل على تهدئة الأوضاع نشر مجلس الوزراء بياناً رسمياً في الصحف العثمانية يُطمئن فيه الشعب بأن السلطان قد اتخذ جميع الإجراءات اللازمة من أجل الحفاظ على الأمن ويُحذرهم بأن كل من يتم القبض عليه وبحوزته سلاح سوف تتم معاقبته، حيث إن الحفاظ على الأمن العام يبقي فقط مسؤولية السلطات والحكومة وحدها. كما صدرت الأوامر بمنع كل التجمعات. ورغم هذا لم يُهدئ البيان من حدة التوتر.[122]

واكتشفت الشرطة في تلك الأثناء عدة مصانع للقنابل تابعة للأرمن وتم التحفظ عليها ودعا السلطان عبد الحميد الثاني المواطنين للاطلاع عليها.[123] ولعل السلطان هدف من تلك الدعوة إلى أن يؤكد للجميع مدى خطورة الأرمن وخيانتهم.

منذ بداية الأحداث الأرمنية العثمانية التي كادت تصل إلى حد الحرب الأهلية، كان تعصب بعض العناصر وتطرفها في الغرب ضد الدولة العثمانية قد ظهر على سطح الأحداث، وكان الإنجليز وعلى رأسهم وليم جلادستون William Gladstone [124] والأمريكيون أكثر تلك العناصر تأثراً.[125] ولكن في نفس الوقت كانت هناك بعض الأصوات المساندة للدولة العثمانية مثل القنصل البريطاني هربرت الذي اعترف بأن الأرمن استثاروا العثمانيين، بينما صرح الخبير في الشؤون الشرقية هوم بيامان Hume Beaman بأن كل عضو في اللجان الثورية الأرمنية يجب أن يُشنق وأن المسؤوليات عن المذابح لابد أن تقسم بين هذه الجماعات الطائشة والسلطات العثمانية وسلبية وعدم فاعلية التدخلات الأوربية.[126]

ويعتقد بعض الأوربيين بأن العثمانيين وعلى رأسهم السلطان كانوا على علم مسبق بتخطيط الطاشناق لأحداث البنك، إلا انهم لم يتخذوا الإجراءات اللازمة لتفادي الأمر.[127] ونحن لا نستطيع أن نؤكد ذلك كما لا نستطيع أن ننفيه في ظل سلطان عُرف بامتلاكه لأجهزة استخبارات قوية. ولا نستبعد أن يكون السلطان العثماني قد سمح لأجهزته الأمنية بالتغاضي عن هؤلاء

(122) Sonyel: Op. Cit, PP. 217-218.

(123) La Reforme, 29 Sep, 1896.

(124) وليم إوارت جلادستون William Ewart Gladstone ولد في 29 ديسمبر عام 1809م بليفربول ودرس في كلية إيتون وجامعة أكسفورد، من أشهر القادة السياسيين البريطانيين في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي كما كان قائداً علمانياً بارزاً في كنيسة إنجلترا وألف عدة كتب في اللاهوت. ثم تم انتخابه لمجلس العموم عام 1832م عن حزب المحافظين، وفي عام 1846م تحول تدريجياً إلى الحزب الليبرالي. وقد تولى رئاسة الوزراء لأربع مرات في بريطانيا (1868- = 1874م) (1880-1885م) (1886م) (1892-1894م) ومات في 19 مايو 1898م. انظر:

The New Encyclopedia Britannica: 30 volumes, London, 1974, vol. 5, PP. 292-294.

الموسوعة العربية العالمية، الرياض، مؤسسة أعمال الموسوعة، 1999م، ج 8، ص ص 412-413.

(125) The Halifax Herald, Tuesday, 10 Sep, 1896. & Tuesday, 8 Dec, 1896.

(126) Sonyel: Op. Cit, PP. 218-219.

(127) Ministere des Affaires etrangeres: Not Verbale Collective remise a la Sublime Porte Par Les Representants des Grandes Puissances, 2 September, 1896, Numero 252.

الطاشناقيين ليستطيعوا تنفيذ عملياتهم وخصوصاً أنها كانت تمس مصالح الأوربيين في العاصمة وبالتالي فإن هذا الأمر سيعمل على تشويه صورة الأرمن أمام حكومات أوربا وشعوبها كما أنه سُيظهر مدى خطورتهم على أمن الدولة العثمانية وسلامتها، وفي المقابل فإنه سيكون من حق السلطان التعامل معهم وفق ما تقتضيه المصلحة العليا لدولته.

ورغم خطورة الأحداث الأرمنية، إلا أن السلطان عبد الحميد الثاني حاول أن يصل إلى اتفاق مع الأرمن ورجال الدين وأن يمنحهم بعض الترضيات رغبة منه في تهدئة الأوضاع وإرضاء الدول الأوربية. ولهذا طلب السلطان العثماني من أحد الأرمن وهو وكيل وزارة الخارجية أرتين باشا أن يعلن له الأرمن عن ولائهم. وفي المقابل فإنه سوف يقوم هو بإعلان الهدنة العامة وتنفيذ الإصلاحات. وبالفعل كتب أرتين التماساً، وفي هذا الالتماس أعلن الأرمن أنه منذ قرون كان الأرمن يُعاملون بكل عدالة كرعايا مخلصين، وقد تمتعوا بامتيازات دينية وخدمات من قبل الحكومة العثمانية، وساد التناغم التام بين الأرمن ورفقائهم العثمانيين. ولكن منذ وقت طويل جاءت بعض الأفكار الأوربية لتمزق البلاد وتعمل ضد المصالح السياسية العليا للدولة. كما اعترفوا بأن بعض الأشخاص قد حاولوا لخدمة مصالحهم الشخصية وتحت اسم الإصلاحات إثارة الفوضى والمساس بالمصالح الحقيقية للدولة، ثم أعربوا عن مشاعرهم المخلصة وامتنانهم نحو السلطان.[128]

رأى العثمانيون ضرورة توضيح الصورة للرأي العام العالمي حول الوضع الأرمني، فأرسلت الحكومة العثمانية إلى سفرائها في مختلف عواصم الدول الأوربية العديد من البرقيات بهذا المعني يذكرونهم فيها بالعدالة والرخاء اللذين تمتع بهما الأرمن في ظل الدولة العثمانية على مدار مئات السنين. وأشارت البرقيات إلى أنه منذ وقت قصير وبسبب الإفراط في ثقة الصلاحيات التي أُعطيت للأرمن، فإنهم نصبوا أنفسهم في مصاف الثوار ضد حكامهم وارتكبوا كل أنواع الجرائم بغض النظر عن خطورة هذه الأعمال. ورغم هذا فقد تمكن السلطان من الحفاظ على النظام والأمن العام، وقام بتأسيس العديد من الهيئات القضائية كي يُقدم هؤلاء المذنبون والمشتركون في الأعمال الإجرامية للعدالة بغض النظر عن جنسيتهم أو ديانتهم. كما قامت الحكومة العثمانية بتفعيل كل الإصلاحات التي تقررت في عام 1895م/1313هـ بالنسبة لولايات الأناضول الست كي تفي بوعودها التي تعهدت بها في مؤتمر برلين عام 1878م/1295هـ. وبناءً على هذه البرقيات طُلب من السفراء إقناع حكوماتهم بحق الحكومة العثمانية في ترحيل مثيري الشغب الأرمن من أراضيها، الذين اختاروا بعض الأماكن في أوربا كمراكز لمؤامراتهم الهدامة والموافقة على ضرورة صدور قانون يسمح

(128) الفلاح، العدد 667 في 6/ 10/ 1896.
Sonyel: Op. Cit, P. 220.

بمعاقبة هؤلاء المجرمين. ولم يمض وقت طويل حتى اضطرت الحكومة العثمانية إلى تكرار رغبتها — للدول الأوربية — في طرد الأرمن مثيري الشغب من أراضيها كما أشارت إلى صعوبة تنفيذ الإصلاحات في ظل استمرار عمليات العنف الأرمنية.[129]

وفي الوقت نفسه، شنت الصحافة العثمانية هجوماً على الثوار يعكس مشاعر الشعب العثماني. فقد كتبت صحيفة إقدام Ikdam في عددها الصادر بتاريخ 8 أكتوبر 1896م/جمادى الأولى 1314هـ مقالاً صرحت فيه بأن جرائم الثوار الأرمن واجهت استنكاراً دولياً وأن أحلامهم الطائشة لم تُعرضهم فقط للوم الإنسانية، بل أيضاً للوم الأرمن المخلصين الذين أجمعوا على استنكار هذه الأفعال، كذلك أعلنت الجريدة نفسها أن الصحف الأرمنية حملت الثوار الأرمن مسؤولية ما يحدث، وناشدت البسطاء منهم المطيعين للقانون ألا يتركوا بلادهم إلى أراض غريبة، بيد أن كثيراً من الأرمن ما زالوا مستمرين في الهجرة.[130]

ويبدو أنه بسبب الصراع الأرمني العثماني الدائر في الأناضول، اعتقد الأرمن أن علاقاتهم مع الدولة العثمانية قد تعكرت إلى الأبد، ولن يكون هناك تسامح معهم بعد ذلك، ولذا هاجر كثير منهم إلى أوربا خاصة بلغاريا واليونان وإلى الولايات المتحدة الأمريكية التي أظهرت حكومتها وشعبها تعاطفاً كبيراً مع الأرمن وقضيتهم، وإلى روسيا وموانئ البحر الأسود.[131] وكذلك إلى مصر وبالتحديد الإسكندرية حيث نجحوا في الاستيطان فيها[132] ولا نستبعد أن يكون هذا نتيجة للضغط الذي مارسته بريطانيا على الحكومة المصرية.

وفي أعقاب حادثة البنك العثماني هاجر حوالي ثمانين أرمنياً إلى جزيرة قبرص حيث كانت توجد جالية أرمنية صغيرة في الجزيرة، إلا أن اعتراض اليونانيين القبارصة حد من هجرة الأرمن للجزيرة خصوصاً أن الحكومة العثمانية كانت قد اتهمت أرمن قبرص بتهريب السلاح إلى رفقائهم في آسيا الصغرى.[133] وفي المقابل لم نر أية ضغوط بريطانية على اليونانيين القبارصة، بل إن بريطانيا عارضت توطين الأرمن في قبرص.[134] ظهر اعتراض اليونانيين القبارصة في مقالة كتبها فرانكودى Frankoudi المراسل اللندني لجريدة فونيتيس كيبروس Fhonitis Kipros إحدى أكبر الصحف اليونانية القبرصية انتشاراً. وذكر في المقالة: "إذا كانوا شديدي الحب هكذا للبشرية (يقصد الإنجليز)، يمكنهم أن يأخذوهم إلى بريطانيا... إضافة إلى أنهم على علاقة مباشرة بكل هذه الأحداث وأنهم هم الذين حرضوا الأرمن على هذه التحركات التي

(129) Sonyel: Op. Cit, PP. 221-222.

(130) Ibid: P. 222.

(131) مصر، العدد 210 في 15/ 9/ 1896، العدد 221 في 1896/9/29.
=

= The Halifax Herald, Saturday, 22 Dec, 1896. & Tuesday, 8 Dec, 1896.

(132) الإخلاص، العدد 70 في 29/ 9/ 1896.

(133) Sonyel: Op. Cit, PP. 223-225.

(134) مصر، العدد 220 في 1896/9/28.

نجمت عنها هذه الأعمال الانتقامية. والآن يقولون إنهم لا يستطيعون حمايتهم هل من المفروض على قبرص أن تدفع ثمن هذا أيضاً ؟".[135]

وفي هذه المقالة يذكر الكاتب صراحة بأن بريطانيا كان لها دور كبير في تحريض الأرمن. ونحن لا نستبعد هذا خصوصاً أن السياسة البريطانية تجاه الدولة العثمانية قد تغيرت بعد مؤتمر برلين لعام 1878م/1295هـ وأصبحت بدلاً من أن تسعى للمحافظة على أملاك الدولة العثمانية، أخذت تسعى لاقتسام هذه الأملاك شرط عدم الإخلال بالتوازن الدولي.

وهكذا هاجر كثير من الأرمن من الدولة العثمانية إما لخوفهم على حياتهم أو نتيجة لسوء أوضاعهم الاقتصادية بعد أن تم الاستغناء عن كثير منهم في الوظائف بسبب انعدام الثقة فيهم. وخير مثال على هذا من استغني عنهم في إدارة الدين العام، أو في الوكالات الأجنبية بسبب إغلاقها.[136]

وقد أدى تزايد الهجرة إلى أن تقوم الحكومة العثمانية بإدخال مزيد من التنظيمات على القوانين الخاصة بالهجرة. ولهذا طلبت من الأرمن الراغبين في الهجرة إلى الخارج أن يقدموا إلى لجنة الهجرة طلباً مرفقاً به خطاب ضمان مختوم من الكنيسة الأرمنية بموجبه يتعهد المسافر بعدم العودة إلى الدولة العثمانية. ويجب إرفاق هذا الطلب، والتعهد بصورتين شمسيتين لمقدم الطلب وأنه لن يتم السماح له بالرحيل قبل المرور بهذه الإجراءات، وسوف تحمل جميع جوازات السفر التي تسلم لهؤلاء الأرمن تعليمات و ملاحظات تنص على أن حامل الجواز لن يكون في مقدوره العودة إلى الدولة العثمانية، كذلك سُيسلم له أيضاً وثيقة أخرى تُخبره بانتهاء جنسيته العثمانية. وسيتم حفظ نسخ طبق الأصل من هذه المستندات والبيانات في الجوازات وفي الأرشيفات المختصة، كذلك سيتم إيداع نسخة منها في إدارة البطريركية. وقد تم منح مهلة شهر ونصف تمتد إلى شهرين لأصحاب الحالات الخاصة من المهاجرين قبل هذا القانون للعودة إلى البلاد والتوفيق بين أوضاعهم والقانون، وعلى من لا يرغبون في العودة الذهاب إلى القنصليات العثمانية المختصة في البلاد التي يوجدون بها من أجل توثيق أوراقهم وسوف يفقد المهاجرون من هذه الفئة أيضاً جنسيتهم العثمانية إن لم يعودوا إلى البلاد في خلال المهلة المحددة سلفاً. والأرمن الذين هاجروا بأسماء مستعارة وبطرق غير مشروعة العودة للدولة العثمانية ولديهم تذاكر مرور أجنبية لن يتم اعتبارهم رعايا أجانب ولن يتم قبولهم في أي جزء من الدولة. أما بالنسبة للأرمن الذين هاجروا منذ مدة تزيد عن العشرين عاماً وعلى وجه الخصوص أعضاء اللجنة الثورية ومثيري الشغب فلن يتمكنوا من الاستفادة بهذا القانون. وبالتالي فلن يُسمح لهم أصلاً بالدخول إلى البلاد حيث إنه قد تم وضع أسمائهم على قائمة "المنتظر وصولهم" وسوف يتم تقديمهم للمحاكمة عند عودتهم. أما فيما

(135) Sonyel: Op. Cit, PP. 223-224.

(136) La Reforme, No 159, Samedi, 19 Sep, 1896.

يخص الأرمن من الجنسيات الأخرى والذين يندسون بأعداد كبيرة بين مثيري الشغب بصفتهم منظمين ومخططين، فإن الحكومة والشرطة تعملان جاهدتين على تذليل العقبات التي تقف في طريق الكشف عنهم وبالتالي هم أيضا لن يستطيعوا التمتع بهذا القانون وكذلك القانون الذي بموجبه تسمح السلطات العثمانية لرعايا الدول الأجنبية ذوى الأصول غير العثمانية بالدخول إليها. وقد تم التصديق على هذه القوانين من قبل مجلس الوزراء العثماني وصدر بها فرمان همايوني.[137]

وفي ضوء رغبة عبد الحميد الثاني تخفيف الضغط الأوربي عنه، أصدر في نوفمبر 1896م/ جمادى الآخرة 1314هـ وعداً بتنفيذ الإصلاحات في ولايات الأناضول الست. كما صرح السلطان للسفير الفرنسي بول كامبون Paul Cambon بأنه سوف يسمح للأرمن بأن ينتخبوا بطريركاً لهم.[138] وقد جرت الانتخابات في 18 نوفمبر/جمادى الآخرة بحضور المجلس الملي الأرمني وانتخبوا مالاشيا أورمانيان Malachia Ormanian (1896-1908م/1314-1326هـ) بمجموع سبعة وأربعين صوتاً ضد خمسة عشر صوتاً. وصدر المرسوم الهمايوني بالموافقة على تعيين أورمانيان يوم 30 نوفمبر/جمادى الآخرة وبعدها ذهب أورمانيان إلى القصر ليقدم ولاءه رسمياً للسلطان، وفي حديثه مع السلطان أعرب عن إخلاصه وإخلاص الشعب الأرمني، وفي المقابل أعرب له السلطان عن سروره بأن الشعب الأرمني قد اختار الشخص المناسب. كما تمنى السلطان أن تستمر الملة الأرمنية على الولاء للسلطنة تحت قيادة هذا البطريرك.[139]

آنذاك دخلت المسألة الأرمنية في طور أهدأ. وذلك لانتخاب المجلس الملي الأرمني بطريركاً جديداً ثم لتحركات السلطان المرتبطة بالإصلاحات، وأخيراً بسبب المفاوضات التي دارت بين اللجان الثورية في باريس ولندن وبين السلطات العثمانية عبر وساطة سكرتير البطريركية الأرمنية ديران بك Diran Bey[140]، وفي الوقت نفسه فقد أثمرت مفاوضات البطريرك الجديد مع السلطان عن الإفراج عن بعض السجناء بعد أن تعهد المجلس الملي العام والبطريرك بولائهم، إضافة إلى الاتفاق على حل اللجان الثورية. وبناء على هذا، أصدر السلطان مرسوماً همايونياً يوم 22 ديسمبر/رجب أمر فيه بوقف إطلاق النار والإفراج عن الأرمن الذين اتهموا بالشغب السياسي بعد أن تم استثناء أربعة وثمانين أرمنياً منهم حكم عليهم بالإعدام ثم خفف الحكم إلى السجن في قلعة مع وعد من السلطان العثماني بإطلاقه سراحهم تدريجياً. شرط أن يقوم هؤلاء السجناء بالحلف أمام

(137) Ibid: No 185, Mardi, 20 Oct, 1896.

(138) Ministere des Affaires etrangeres: M.P. Combon, Ambassadeur de La Republique Francaise a Constantinople, a M. Hanotaux, Pera, Le 5 November, 1896, Numero 286. =

= الأهرام، العدد 5657 في 30/ 10/ 1896.
الرأي العام، العدد 40 في 31/ 10/ 1896.
الإخلاص، العدد 76 في 10/ 11/ 1896.

(139) Sonyel: Op. Cit, P. 231.

(140) Ibid: P. 231.

البطريركية قبل أن يتم الإفراج عنهم، كما امتد وقف إطلاق النار ليشمل المسلمين الذين تم القبض عليهم وسجنهم بسبب سلوكهم المشين أثناء الفوضى، وعلى هذا أصدر السلطان فرماناً همايونياً يُوافق فيه على توصيات مجلس الوزراء ويأمر بتنفيذها.[141]

كما صدر مرسوم همايوني آخر في يوم 17 يناير 1897م/شعبان 1315هـ بموافقة السلطان على العديد من المطالب الإصلاحية التي تقدم بها البطريرك الأرمني ومنها: إعفاء أرمن الأناضول من الضرائب العسكرية الاستثنائية لمدة سنتين، كما صدرت الأوامر إلى البنك الزراعي بأن يمنحهم القروض ويعيرهم البذور من أجل الزراعة ووافق السلطان أيضاً على إصلاح مدارسهم وتشكيل لجنة مكونة من الرسميين والمفوضين من قبل السكان لإرجاع المزارع التي كانت قد هُجرت أثناء الثورة إلى أصحابها. وعلى احترام حرية التعبير مع ضرورة أن تُغير الصحافة من لهجتها العنيفة ضد الأرمن بسبب أعمال الثوار.[142]

الخاتمة :

وهكذا يتضح من الدراسة أن التفتيت السياسي لأرمينية وانقسامها إلى شرقية روسية وغربية عثمانية قد أدى إلى إضعاف تحقيق حُلم الأرمن في الاستقلال التام أو حتى الحكم الذاتي، وبالتالي فقد عجز الأرمن في كثير من الأوقات عن تقديم خالص ولائهم لحكام كلتا الدولتين. وبالتركيز على أرمينية الغربية، نجد أن الأرمن نعَموا في ظل الحكم العثماني بمساحة كبيرة من التسامح الديني كان لها مردود سلبي عليهم، إذ أدى هذا إلى حدوث انقسام ديني مذهبي بينهم فكان منهم الأرثوذكس والكاثوليك والبروستانت. وبذريعة هذا الانقسام تدخلت الدول الأوربية في شؤون الدولة العثمانية لتحقيق الحماية المذهبية للأرمن مستفيدة من نظام الامتيازات الأجنبية.

وأكدت الدراسة أن الملة الأرمنية نجحت في الاندماج في المجتمع العثماني إلى حد بعيد واستطاع بعض الأرمن الانضمام إلى شريحة أغنياء الدولة العثمانية، من خلال الأنشطة الاقتصادية المتنوعة التي مارسوها بحرية. وغدا هؤلاء الأرمن كأكبر منافسين لليونانيين واليهود، خصوصاً بعد قيام الثورة اليونانية عام 1821م/ 1237هـ وصدور فرمانات التنظيمات العثمانية لعامي 1839م/1255هـ و 1856م/ 1273هـ. وبناءً على هذا، فقد وصل العديد من الأرمن إلى المناصب الحكومية واستطاعوا أن يوثقوا علاقتهم بالعثمانيين، أما في أقاليم الأناضول الست فلقد عانى الأرمن مع غيرهم من رعايا الدولة العثمانية الأزمات التي مرت بها الدولة وأيضاً من فساد الجهاز الإداري. وأظهرت الدراسة إن الاندماج الأرمني العثماني لم يستمر إذ إن ثمة عوامل أدت إلى تغير سلوك الأرمن كان من أهمها الدور الذي لعبته روسيا في إثارة

(141) The Halifax Herald, Wednesday, 23 Dec, 1896.
Sonyel: Op. Cit, PP. 231- 232.

(142) Sonyel: Op. Cit, P. 232.
الإخلاص، العدد 76 في 10/ 11/ 1896.

الطموحات القومية لدي الأرمن. ناهيك مما أسهمت به النهضة الفكرية والصحفية والتعليمية والإرساليات التنصيرية الكاثوليكية والبروتستانتية. فامتلك الأرمن بهذا أدوات الإحياء السياسي لتحقيق الحلم الأرمني. ولكن في مقابل عوامل الإحياء هذه توافرت جملة معوقات، فالعثمانيون رفضوا تحقيق الحلم الأرمني لأن فيه بتراً لشرقي الأناضول الموطن الأصلي للأتراك العثمانيين مما حدا بالأرمن إلى مناشدة الدول الأوربية تبني قضيتهم في مباحثات السلام إبان مؤتمري سان استفانو، وبرلين عام 1878م/ 1295هـ. وفعلاً نجحت المساعي الأرمنية جزئياً، ولكن العثمانيين استطاعوا التنصل في كثير من الأحيان من التزاماتهم نحو الأرمن، وبالتالي نجحوا في إسقاط ورقه المطالبة بالاستقلال التام أو حتى الحكم الذاتي من أيدي الأرمن.

كان الأرمن قد لجؤوا إلى تعديل إستراتيجيتهم في الدولة العثمانية حسب ما تقتضيه الظروف فمع عدم استجابة الدول الأوربية لهم، ترك الأرمن أسلوب الإقناع إلى العنف لإجبار الدول الأوربية على التدخل، وكان احتلال البنك العثماني في استانبول في 26 أغسطس 1896م/1314هـ أحد فصول تلك الأعمال العنيفة المميزة وذلك لأن المساس بالبنك فيه أضرار بمصالح الرعايا الأوربيين في العاصمة العثمانية ومن ثم فإن هذا الضرر سيدفعهم للضغط على حكوماتهم من أجل التعامل بإيجابية مع المسألة الأرمنية.

والحقيقة أن سلبية الدول الأوربية تجاه المسألة الأرمنية كانت تعود إلى اختلاف مصالحها، ولا ننكر أن هذا الموقف الدولي قد ساعد السلطان عبد الحميد الثاني على تجاوز أزمات المسألة الأرمنية ولو ظاهرياً رغم أن الأرمن استمروا ينخرون في جسم الدولة العثمانية حتى إسقاط النظام الحميدي خصوصاً بعد تحالفهم مع المعارضة العثمانية عام 1902م/1320هـ.

وأثبتت الدراسة أيضاً انتهاء سياسة المحافظة على أملاك الدولة العثمانية بعد مؤتمر برلين لعام 1878م/1295هـ باحتلال بريطانيا لجزيرة قبرص وظهور سياسة جديدة وهي تقسيم أملاك الدولة العثمانية شرط عدم الإخلال بالتوازن الدولي. وقد أدى تدهور الأوضاع السياسية، والاقتصادية، والأمنية في الدولة العثمانية إلى مزيد من تدخل الدول الأوربية في الشؤون العثمانية. وتمثل هذا في الإصرار على تنفيذ الإصلاحات رغم صعوبة الأمر على السلطان عبد الحميد الثاني في ظل استمرار موجة الغليان القومي داخل دولته إضافة إلى العجز الذي كانت تعانيه الخزانة العثمانية.

ولم يقف التدخل عند هذا الحد، بل نادى كثير من الأوربيين بعد أزمة احتلال الأرمن للبنك العثماني بضرورة تنحى السلطان عبد الحميد الثاني عن الحكم وسعوا إلى تشويه صورته في أوربا. وقد حاولت بعض العناصر استغلال أزمة العلاقات الأرمنية العثمانية الأوربية. فرعايا الدولة العثمانية من الأكراد والأرناؤوط والجراكسة ومهاجرى البلقان رغبوا في تحقيق أكبر قدر من المكاسب على حساب جيرانهم

الأرمن مستغلين توتر علاقاتهم بالعثمانيين. كما حاول اليهود الحصول على وطن في فلسطين مقابل مساعدة السلطان عبد الحميد الثاني في حل المسألة الأرمنية مستغلين ما لهم من نفوذ مالي وإعلامي في أوربا.

وفي ظل هذه الأوضاع المتدهورة للأرمن في الدولة العثمانية، هاجر الكثير منهم مع اختلاف الدوافع والأهداف، فالبعض هاجر للبحث عن حياة جديدة أكثر أمناً ورخاءً. والبعض الآخر هاجر من أجل الانضمام للجان الثورية الأرمنية بهدف العودة مرة أخرى للدولة العثمانية لتنفيذ عمليات عنف جديدة.

وأخيراً فهذه صفحة من صفحات المسألة الأرمنية رغب فيها الأرمن تحقيق حلم الاستحالة في زمن كانت فيه الدولة العثمانية تبحث بنفسها عن طوق النجاة الذي اعتقد الاتحاديون أنهم عثروا عليه بعزلهم للسلطان عبد الحميد الثاني ولكنهم غرقوا وأغرقوا من معهم.